السلطانة "خرم"

توشّـح المسـاء بوِشـاح الحمـرةِ عند غروب الشـمس، ضمـن منظرٍ خلابٍ أشـبه ما يكون باللوحة الفنّيّة، حيث تبدو الشـمسُ وكأنّها كرةٌ من اللهب تتنزّل إلى سفوح "جِيهَانْجِيرْ (*Cihangir*)" متناغمةً مـع الغيومِ كأنّها تقودُهم من حولِها.

وأمـا تلال "جَمْلِجَـا (*Çamlıca*)" فهي تلوح في الأفـق بِقِمَمِها، فتبدو للناظرين كأكوامٍ ذات خطوطٍ حمراء.

وقِطَـعُ الغَيْـمِ تسـبح في سـماء إسـطنبول، مُلْتَحِفـة بقمـاشٍ مُغَرْبلٍ أرجوانيٍّ ثقيلٍ أما برج "جلطة (*Galata*)" الشامخ فقد تتوّجَ بالنيران.

"السلطانة خُرَّم"، تشعرُ وكأنّه قد شَبَّ في قلبها حريق.

إن مشاعرَ الجاريةِ الشابّةِ قد اشتعلت في جنَبَاتِها، وهي مُحمَّلة بالحب الوحيد الذي في قلبها إلى السلطان سليمان القانوني.

وَجْنَتاهـا الورديتـانِ تبـدوانِ كزهرتَينِ تُضيئانِ مِن لَهِيـبٍ تحت حُمرةِ الشـمس الغاربـة... فهـي ترتـدي رِداءً بديعًـا مـن الحرير المُخْمَـلِ الذي ينساب على جسدِها الرقيقِ، وقد طُرّزتْ عليه الورودُ بخيوطٍ من ذهبٍ.

* * *

تقدمـت "السـلطانة خُـرَّم" برشـاقتها المعهـودةِ تمشـي على البُسُـطِ الفارسـية الفارِهـة، ثم جثت علـى ركبتيها أمامَ الطاولـةِ المزيّنةِ بالأحجار

obeikandl.com

الكريمة والصُّدف الثمينةِ، ثم أمسكت بأصابعها الرقيقةِ قَلَمًا من البوصِ[٤] كانت قد تركته منذ قليل.

و أخذت "خُرَّم" تكتب بذلك القلم بعد أن غمسته في الحبر:

"سلطاني، يا حبيبَ روحي، إن وجهَك كوجه يوسف، وكلماتك أحلى من العسل المصفى!

إنني أتضرّع إلى الله ﷻ، وأبتهلُ إليه، وأرجوه أن يُريَني في أقرب وقتٍ وجهَك المبارك.

عجبًا! فلو صارت الأشجار أقلامًا، والبحار مدادًا، فهل ستكفي لتكتبَ وتعبّرَ عن لوعةِ هذا الفراق وألَمِ هذا البُعْدِ؟!

فمن أراد أن يعلم ما أُكابدُه بُبعْدِك عنّي فليقرأْ سورةَ يوسف، عندها سيدرك آلامَ الفراق..".

وفي السطر الأخير، بَكَتِ "السلطانة خُرَّم" وذَرَفَتْ دمعتين رقيقتين قد سالَتَا من عينيها الزرقاوين النَّجْلاوين، ثم قامت في هُدوءٍ ورِقَّةٍ وطَوَت الخطاب، بعد أن كتبتْ جُملَتَها الأخيرةَ.

وفي تلك الأثناء كانت تحسّ أن صدرها يصعد ويهبط اشتياقًا، وهي تشعرُ بخفقان قلبها، ولا تسمعُ إلا دقّاتِ قلبها المتسارعةِ من فَرْطِ وجدها وشوقها.

* * *

لقد كانت"السلطانة خُرَّم" محبوبةَ السلطان القانوني خلالَ فترةِ حكمه، تلك الفترة التي أُطلِق عليها في تاريخ الدولة العثمانية اسمُ "العصر

(٤) **البُوص** :جمع مفرده بُوصة، وهو نبات من نباتات المستنقعات المُعَمَّر، من الفصيلة النجيليّة، له سيقان مجوّفة وأوراق عريضة وعناقيد زهريّة دائمة مثل القصب وهو يستخدم كثيرًا كقلم كتابة. (المترجم)

الذهبي"، لقد كانت "السلطانة خُرَّم" تتميّزُ بالذكاء وتتمتع بشخصيةٍ غامضةٍ معقّدةٍ، فيُحكَى عنها أنها قد اشتركت وانخرطت في الأحداث السياسيّة والدمويّة التي وقعت في ذلك العصر...

إنها المرأة التي يُنسَب إليها فَرْض سَطْوَتِها وهَيْمَنَتِها على النساء في بلاط القصر العثماني...

فقد كانت "السلطانة خُرَّم" -بلا شك- أُولَى النساء التي جَسَّدت سيادةَ المرأةِ وسطوتَها، سواء في قصور الشرقِ أو الغربِ على حدٍّ سواء.

هذا، وينبغي علينا -إذا أردنا العلم والإحاطة بتفاصيل حياة السلطانة خرّم- أن نمتلك القدرة على التحليلِ الصحيح للأحداثِ التاريخيّةِ التي تنسَب إليها المشاركةُ فيها، وأن نعلمَ أيضًا أنّ الفهمَ الدقيقَ والكاملَ لتصرفاتِ هذه المرأةِ العظيمةِ إنما هو أمرٌ في غاية الصعوبة، بل يكاد يكون مستحيلًا.

ويُمكِن إرجاعُ السبب في هذا الأمر إلى أن المؤرخينَ العثمانيّينَ أنفسَهم قد امتنعوا عن تسجيل الحقائق، كما أن بعضَ المؤرخين المعاصرين الأتراك تَعَمَّدوا -في سبيل إعلاء فكرة الجمهورية- تشويهَ سُمعةِ كلِّ الشخصيّات العثمانيَّة بكلِّ ما أُوتُوا من جهدٍ وقوَّةٍ، دون تفريقٍ بين رجلٍ وامرأةٍ، كذلك نجدُ أن مؤرّخي الجمهورية قد عملوا على الحَطِّ مِن قَدْرِ كلّ القيمِ والمبادئِ، وتحقيرِ كلّ ما يرتبط بفترةِ الحكمِ العثمانيّ، حتى إنهم وصلوا إلى درجة التنافُسِ فيما بينهم؛ من أجل تحقيق هذه الأهداف الدنيئةِ..

أما إذا انتقلنا إلى المؤرخين الغربيّين، فنجد أن هؤلاء قد امتازوا عن أسلافهم في تناولِهم للأحداثِ والشخصيّاتِ التاريخيّةِ بالانحياز

التامّ وعدم الموضوعيّة والتزييفِ، فصرفوا جُلَّ جَهْدِهِم في سبيل لَيِّ عُنُقِ الحقيقة، وتحريف الوقائع.

البنت اللطيفة اسمها "خُرَّم"

وفقًا لإحدى الروايات، فقد كانت "السلطانة خُرَّم" ابنةً لِأَسْقُف كاثوليكي فقير يُدْعَى "مارسجلي"، وقد نشأتْ في منطقة "روجاتينو" "روهاتين (*Rohatyn*)" على ضفاف نهر "ليبا (*Lipa*)" في "جاليتشيا (*Galiçya*)".

وفي أثناء الهجمات التي قام بها تَتَارُ القِرم على امتداد نهر "دنيستر (*Dinyester*)" -والمناطق التي تقع ضمن حدود أوكرانيا حاليًا- تَمَّ أَسْرُ "خُرَّم"، وذلك في فترة حكمِ السلطان يووز سليم[٥]، وتمَّ إرسالُها إلى القصر في عهد السلطان سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠م).

وقد اختلفت الآراء حول حقيقة أصل "خُرَّم"، فعلى الرغم من إشارة مجموعةٍ من الروايات من مصادر مختلفة إلى كونها ذات أصلٍ روسيٍّ أو بولنديّ، إلا أن "دَانِشْمَنْد" يؤكد لنا أنها بولنديّة الأصل[٦].

لقد كان سكّانُ منطقة "روجاتينو (*Rogatino*)" -التابعة لحكم دولة "لهستان" البولندية- غالبًا من ذوي الشعر الأحمر، وكانت بِنْيَة "السلطانة خُرّم" تشبههم.

ويذكر بعض المؤرخين أن "السلطانة خُرَّم" قد وُلِدَت سنة (١٥٠٤م) تقريبًا، وقد تم تقديمُها بوساطة "مقبول إبراهيم باشا" عند دخولها القصر العثماني، وعمرها وقتئذٍ يتراوحُ بين الرابعةَ عَشَرَ والسابعةَ عشَرَ عامًا[٧].

(٥) "طَيِّب جُوكْبِيلْجِينْ (*Tayyib Gökbilgin*)"، "السلطانة خُرَّم "، وزارة التربية والتعليم، الموسوعة الإسلامية، إسطنبول (١٩٦٤م)، الجزء الخامس، ص ٥٩٣.

(٦) إسماعيل حامي دَانِشْمَنْد (*Danişmend*)، التسلسل الزمني المشروح للتاريخ العثماني، إسطنبول (١٩٦١م)، الجزء الثاني، ص ١٨٧.

(٧) "جَغَطَايْ أُولُوجَايْ (*Çağatay Uluçay*)"، نساء وبنات السلاطين، أَنْقَرَة (١٩٨٠م)، ص ٣٤.

اسمها الحقيقي هو "أَلِكْسَنْدَرَا (*Alexandra Lisowska*)" وتعرف في المصادر الغربية باسم "روزا (*Rossa*)"[٨]، وكذلك "روسانا (*Rosanna*)"، ولكننا نجد في تلك المصادر الغربية أن اسم "روكسلان (*Roxelane*)"[٩] هو أشهر الأسماء التي تُنْعَتُ بها، في حين نجد أنها لا تكاد تُعْرَف في المصادر العثمانية سوى باسمٍ واحدٍ فقط، هو "السلطانة خَاصَكِي (*Haseki*)"[١٠].

وخلال الفترة الأولى التي عاشتها في القصر سُمِّيت تلك الفتاة -التي لا نجد معلومات دقيقة حول أُولَى أيامِها في القصر- باسم "خُرَّم (*Hürrem*)"[١١] أو "خُرَّم شاه (*Hürremşah*)"؛ وذلك لأنها كانت بشوشةَ الوجهِ ودائمةَ البهجةِ، وبعد عدة سنوات قَضَتْها "خُرَّم" في قصر القِرِم مُنشغِلةً بالتدريب وتحصيل العلم، تمّ إرسالها كهديّةٍ إلى القصر السلطاني من قِبل حاكم القِرِم.

وعلى هذا النحو، لم تكن "خُرَّم" قد أتمَّتْ في القصر القديم، الذي جاءت منه، مرحلةَ التدريب والتعليم، وقتما تَمَّ تقديمُها إلى السلطان سليمان القانوني عام (١٥٢٠م) الذي لم يَمْضِ على اعتلائه العرشَ العثمانيّ أكثرَ من شهرين.

ويفهم من هذا أنها -حتى ذلك الوقت- كانت قليلة الخِبْرَةِ، ولم تكن على قَدْر من الوعي والثقافة اللذين يؤهّلانِها لِأَنْ تكونَ زوجةً للسلطان[١٢].

(٨) "روسا" تعني في اللغة الإيطالية الأحمر.

(٩) لقد ذكر مثقفو وأدباء عصر النهضة أن اسم "روكسلان (*Roxelane*)" بناءً على معناه يعتبر من أسماء النساء في روسيا، وربما قصدوا أيضًا بذلك التلميح إلى القبيلة التي يشير إليها هذا الاسم، تلك القبيلة التى عاشت في روسيا منذ القدم.

(١٠) جاهد بَلْطَجِي (*Baltacı*)، "السلطانة خُرَم "، الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة التركية، إسطنبول (١٩٩٨م)، الجزء الثامن عشر، ص ٤٩٨.

(١١) "خُرَّم" هو اسم فارسي معناه المرِحة وذات الوجه الباسم.

(١٢) يِلْمَازْ أُوزْتُونَا (*Yılmaz Öztuna*)، تاريخ تركيا، الجزء السادس، ص ١٨٢.

اللوحات المُجَسِّدة لصورة "خُرَّم"

تعتبـر اللوحات التي رُسِـمَتْ في ذلك الوقت للسـلطانة "خُرَّم" دليلًا مهمًّا يوضّح لنا الهيئة والصورة التي كانت عليهما "السلطانة خُرَّم"، ولكن على سـبيلِ التقريبِ لا المطابقة؛ إذ إنه وفقًا لتقاليدِ ذلك العصرِ، لم يكن من الممكن للسـلطانة "خُرَّم" أن تقفَ أمام أحد الرسـامين لتأخذ الوضع الذي سيرسمها عليه!

وبِناءً على هذا، فإن الصورَ المتاحةَ بين أيدينا اليوم، والتي تُنْسَب إلى "السلطانة خُرَّم" لا يمكن اعتبار أيٍّ منها صورًا حقيقية لها، وإنّما هي صُوَر تقريبية لِما كانت عليه من هيئةٍ وشكل.

ولا يذكـر لنا المؤرخون أن "خُرَّم" كانـت تتمتّعُ بجمالٍ بارع، لكنهم يذكـرون لنـا أنها كانت تتمتّـعُ بجاذبيّـةٍ ذات طابَـع خاصّ؛ حيـثُ أَحَبَّها القانونـي عندما رآها لأول وَهْلةٍ، وارتبـط معها برباطِ الزوجية، في علاقة امتدَّتْ طوال سنوات حياته، مانِحًا إياها مكانة خاصة في قلبه[١٣].

وها هو الرحالة الإيطالي "بيترو براجادينو (*Pietro Bragadino*)" يصف لنا "خُرَّم" الروسية، التي شَعَرَ بالسعادة عند رؤيتها عام (١٥٢٦م)، قائلًا: "ليست جميلةً، لكنها لطيفةً"[١٤].

لم يكن السلطان القانوني مُولعًا بالنساء

باعتِلاء السلطان القانوني عَرْشَ الخلافةِ العثمانيَّةِ، بدأتْ أكثرُ مراحل التاريخ العثمانيّ عَظَمةً ورَوْعةً، فقد شاع نبأُ اعتلائه العرش في كلِّ أرجاء المعمورة، وعلمت به كلُّ المدن والدول الأوروبية.

(١٣) طَلْعَت حَصِرْجِي أُوغْلُو (*Hasırcıoğlu*)، "السلطانة خُرَّم" بين سيدات القصر العثماني اللاتي حكمن السلطنة، المجموعة التاريخية المصورة، إسطنبول (١٩٥٦م)، الجزء السابع، العدد، ٧٣، ص ١٧.

(١٤) ترجمت هذه العبارة عن الجملة التالية التي كتبت بالإيطالية: (*Giovine non bella ma grassiada*).

obeikandl.com

"السلطانة خُرّم" وزوجها سليمان القانوني

لقد كان سليمان القانوني الذي اعتلى العرش، وهو في السابعة والعشرين من عمره، يتمتَّعُ بهيبةٍ تُجبِر أيّ شخصٍ على توقيره بمجرّد أن يراه.

كان مستديرَ الوجه، ذا حاجبينِ مقوّسينِ، وعَيْنينِ عَسَليَّتينِ، وشارِبينِ عَظِيمينِ؛ كانت له هَيْبَةُ السَّبعِ، وصوتٌ كالرعد، كان من طِرَازِ والِدِه السلطان "ياووز (*Yavuz*)"؛ حيث كان ذا أَنْفٍ معقوف[١٥] تُمَيِّز الرجال المُنْحَدِرينَ من نَسْل آل عثمان، وكانت أفعالُه توحي بالخصال التي ورثها من أجداده.

تميّز القانونيّ -طوال فترةِ حياته المزدهرةِ- بالاعتدالِ وعدم المَيلِ إلى العصبيّة والتأنّي في جميع الأمور، وقد كان لتلك الخصال دورٌ كبير في اتخاذه القرارات.

ويروي الكثير من المؤلفين عن السلطان سليمان أنه لم يكن يشرب الخمر رغبةً منه لكيلا يكون لديه أيّ نوعٍ من أنواع الهَوَسِ أو التعلّق بالنساء أو ذهاب العقل، رغم عدم وجود ما يحول بينه وبين ذلك.

وكان من المعروف عن زوجته السلطانة "جُلْبَهَارْ (*Gülbahar*)" والدة ابنه الأكبر الأمير مصطفى، أنها كانت للقانوني بمثابةِ قُرَّةِ عينه ومحبوبته الأولى التي تعرَّف إليها أثناء فترةِ ولايته للعهد، ولكنه بعد أن تَعَرَّفَ إلى "خُرَّم"، أصبحتْ هي المسيطرةُ على قلب القانوني، وملأت عليه كلَّ لحظات حياته.

وَلَعَلَّ بَقَاءَه مع المرأة نفسها لمدّة سبعةٍ وثلاثين عامًا من حياته، لَهُوَ أكبرُ دليل مُقْنِع على بُطلان الادِّعاءات التي أشاعت عنه أنه كان فاسقًا و زِيرَ نساءٍ.

(١٥) أَنْفٌ مَعْقُوفٌ: أي مُعْوَجٌّ مِنْ أَرْنَبَتِهِ، ومكوّرٌ من وسطه. (المترجم)

السلطانة الوالدة

قام السلطان سليمان بعد اعتلائه العرش، بإحضارِ والدتِهِ السلطانة "حفصة (*Hafsa*)" التي كانت مقيمة في "مانيسا (*Manisa*)" إلى إسطنبول، بعد أن هَيَّأَ لها وضعًا يَلِيق بها وبمَكانتِها.

وبذلك يَتَسَنَّى لهذه السيدةِ -التي كانت تعيسةَ الحظِّ، وأقصاها السلطانُ "سليم" من الحريم لسنوات طويلة- أنْ تحيا أخيرًا بسلامٍ وطمأنينةٍ، وأن تنالَ مكانَتَها في بلاطِ القصرِ العثمانيّ.

وقد حصلت السلطانة حفصة على لقبِ "السلطانة الوالدة" -الذي أصبح يُطلَق عليها بعد تولّي السلطان سليمان الحكم- وتمكنت مِن الوصول إلى النفوذِ والقوَّةِ اللذَينِ لم تستطعْ أن تنالَهما في عهدِ زوجها الراحل.

لقد أصبحت السلطانة حفصة الآن هي المُتحكِّمة في قصر السلطان الذي يهيمن على الدُّوَل ويحكم شتّى بقاع الأرض، فلقد أصبحت شؤونُ القصر تحت سيطرتها، والجواري رهنَ إشارتها، وصارت أخصَّ نساء السلطان القانونيّ؛ أي: "جُلْبَهَارْ" و"خُرَّم" تبذُلان قصارى جهدهما لعَدَمِ إبداءِ ما قد يزعجُها أو يُكدِّر صفوَها؛ لِيَنَالَا رِضا السلطانة الوالدة عنهما.

فرحتا السلطان

كان أوّلُ ما قام به السلطان القانوني بعد أن اعتلى العرش هو إخماد التمرُّد الذي تَزَعَّمَه والي الشام "جَنْبَرْدِي غَزَالي (*Canberdi Gazalî*)"، الذي انتهزَ فرصةَ انتقال مقاليد الحكم في السلطنةِ، وأعلنَ العصيانَ على السلطان سليمان.

كان الغزالـيُّ يطمحُ إلى إعادةِ إحيـاءِ الإمبراطوريّةِ المملوكيّةِ؛ معتقدًا أنه أمام حاكمٍ شابٍّ جديدٍ بلا تجربةٍ، فأقام حِلفًا مـع كلٍّ من إيران وفرسان رودس.

لكـن "شَهْسُـووَارْ أُوغْلُو (*Şehsuvaroğlu*) علي بَـكْ" حاكم "دولقادر" والذي عيَّنَه السلطانُ الجديد تَمَكَّنَ مِن إلحاق الهزيمةِ بوالي الشام وضَرْبِ عُنُقِهِ في السادس من شباط/فبراير عام (١٥٢١م).

* * *

وبينمـا كانـت حـرب القضـاء على التمـرّد في الشـام مسـتمرّة، كان السلطان سليمان مشغولًا في إسطنبول بالإعدادِ لحملةٍ عسكريّةٍ جديدةٍ.

حيث إن سفير الدولة العثمانية "بَهْرَامْ جَاوُوشْ (*Behram Çavuş*)" كان قد اغتِيلَ بأمر من "ليوش (*Layoş*)" الثاني ملك المَجَر بعد أن قام بتعذيبه، وكان هذا السفير قد تمّ إيفاده إلى المجرِ مِن قِبَلِ الدولة العثمانية من أجل تحصيلِ الجزيةِ، حامِلًا في الوقت نفسه الخبر السلطانيّ بجلوس السلطان الجديد على العرش، لقد اعتُبِر هذا العملُ الوحشيُّ خرقًا واضحًا للقانون الدولي، وبالتالي كان سببًا لوقوع الحرب.

فمثل ذلك العمل لم يكن مما يجوزُ أن يُرتَكَبَ في حقِّ سلطانٍ يحكمُ العالـمَ مثـل سـليمان القانوني، فضـلًا عن التزامـه في الوقت نفسِـهِ بكلّ المعاهداتِ والقوانينِ والحقوقِ مـع الدول والكيانات الأخرى.

كان ملك المجر قد أصابه الغرورُ، لا سيّما وأنه كان متزوجًا من أخت الإمبراطـور "شـارلكان (*Şarlken*)" الألمانـي، وقد اعتمد فـي اقترافه هذا الفعل الشنيـع على علاقة النسب التي تَرْبُطُهُ بذلك الإمبراطور؛ متوهّمًا أن هناك قوّةً ستقف وراءه وتحميه[١٦].

(١٦) ضيا نور أَكْسُونْ (*Aksun*)، التاريخ العثماني، إسطنبول (١٩٩٤م)، المجلد الأول، ص ٢٣٩.

تحرّكَ الجيشُ العثمانيّ مُتَّجِهًا إلى المَجَرِ، قاطعًا شبهَ جزيرةِ البلقانِ، واستمر في الزحف حتى استطاع الوصولَ إلى مشارف نهر "سافا (*Sava*)" في وقت قصير جدًّا، وفي غضون تسعة أيام تمكَّن من الانتهاء من إنشاء جسرٍ كبيرٍ على ذلك النهر الذي يبلغ طوله ألفًا وثمانمائة ذراع، ثم استطاع بعد ذلك أن يعبُرَ النهر ويصل إلى منطقة "سيرم (*Sirem*)" التي تضمّ داخل حدودِها "بلجراد (*Belgrad*)".

كانت (بلجراد) واقعةً تحت الحصار منذ قرابة الشهر، من قبل الجيش الذي أرسله السلطان سليمان قبل ذلك تحت قيادةِ الوزير "بيري (*Pirî*) باشا"، وبعد أن اشتدَّ الحصار بدعم من القوّاتِ الإضافية ازدادت الهجمات على المدينة.

وفي نهاية الأمر، سقطت مدينة "بلجراد" في يد العثمانيين يوم الثامن من آب/أغسطس من عام (١٥٢١م)[١٧].

أراد السلطان سليمان إعادةَ إعمارِ المدينةِ المدمّرةِ، فأمر بإنفاق عشرين ألف قطعة من الذهب من أجل تحقيقِ هذا الهدف، ثم بعد ذلك القرار -الذي يدلُّ على تحضُّر وحكمةِ العثمانيّين- أخذت المدينة في التطوُّر والازدهار؛ حتى أصبحت مدينةً تجاريةً كبيرةً.

أما أوروبّا فقد تلقت خبر فتح "بلجراد" بحزن عميق، في الوقت الذي أُضِيفَت إلى هذا النصر الكبير فرحةٌ ثانيةٌ أثلجت قلبَ السلطان القانونيّ، وذلك عندما أنجبَتْ له زوجتُه الحبيبةُ "خُرَّم" الأميرَ محمدًا، الذي عمّت البهجةُ الدنيا بقدومه.

(١٧) أَكْسُونْ، المصدر السابق، المجلد الأول، ص ٢٤١.

وبهذا القدوم السعيد للمولود الجديد استطاعت "خُرَّم"، وهي لا تزالُ جاريةً شابّةً ذات السبعة عشر ربيعًا، أن تنالَ وتفوز بلقب "خَاصَكِي"[١٨]، وتمكّنتْ في الوقت نفسه من أن تجعلَ الشابَّ الحاذق ذا الثمانية والعشرينَ عامًا يعيش فرحتين.

"لا أُنكِرُ شعوري بالأسف لما أصاب هذا الكافر"

قضى السلطان القانوني موسم الشتاء من عام (١٥٢١م) في إعدادِ أسطولٍ بحريٍّ جديدٍ؛ لقد كان يرغب في الاستيلاء على قلعة "رودس" التي كانت بيد فرسان "سانت جين (*Saint Jean*)"، لا سيّما أنّ هؤلاء الفرسان كانوا قد دأبوا على القيام بأعمالِ السلبِ والنهبِ تحت دعوى خِدمةِ المسيحيَّةِ، وكان هؤلاء الفرسان يجنونَ ربحَهُم عن طريق نهْبِ سُفُنِ المسلمين وبَيعِ كلِّ مَنْ كانوا يجدونهُ بها كأَسْرى وعبيد.

كانت "رودس" تتمتّعُ بالتماسُكِ الداخليّ في ذلك الحين، وكان يُعَدُّ ضربًا من المستحيل الاستيلاءُ عليها؛ فقد قام الفرسان باتخاذِ كافّةِ التدابير اللازمة لتحصينِ القلعةِ ومنعِ الجيشِ العثمانيّ من دخولها، وسدُّوا مدخلَ الميناء في وجه سفنِ البحريّةِ التركيّةِ بسلسلةٍ معدنيّةٍ طويلةٍ؛ كتلك التي كانت موجودة عند مدخل ميناء بيزنطة.

لكن بفضل ما تمتّع به الجيشُ العثمانيّ من تقنيّاتٍ حربيّةٍ متطوّرةٍ إلى جانب قوّةِ النيران التي كان يقذفها بِحِرَفِيّةٍ ودقّةٍ، فقد استطاع أن يحسمَ هذه الحرب بشكلٍ سريعٍ لصالحه، ورغم الخسائر الكبيرة فقد تمكّنَ العثمانيُّون من القضاء على قوَّات فرسان "سانت جين" في الثلاثين من

(١٨) خاصَكية: إنه أطلق على الجواري اللاتي وجدن القبول من السلطان واحتظين بحظوته. (سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، الرياض-٢٠٠٠م)، ص ٩٥. (المترجم)

تشـرين الثاني/نوفمبـر من عام (١٥٢٢م)، حيث وافـق قائدُ قلعةِ "رودس" علـى تسـليمِها بعـد أن أدرك أنـه لا فائدةَ من المقاومة؛ شـريطةَ أن يخرج سالِمًا بسفنه وأن يأخذ معه كلَّ ما يمكن حمله.

وقد فرح السـيد الأعظم "فيليرس د. إيسـلي (*Viliers de I'Isle*)" فرَحًا شديدًا لدرجة أنه قَبَّل يد السلطان سليمان مُعرِبًا عن شكرِه وتقديرِه لِقَبُولِهِ بشـروط التسـليمِ التـي عرضوهـا عليه، وأخذ فـي الاسـتماعِ إلى كلمات الشـفقة من السـلطان سـليمان، حيث تحـدَّث إلى المسـؤول عن جناحه الخاصّ، الذي كان يقف إلى جواره في تلك الأثناء قائلًا:

"لا أُنكِرُ شعوري بالأسف؛ إذ أُخْرِج هذا الرجل في مثل هذه السن من دياره".

وبالطبـع، فـإن مثل هذه الكلمات لا تشـير سـوى إلـى رجاحةِ عقلِ القانونيّ، وكيف كان إنسانًا مُرْهَف المشاعر رقيقَ الإحساس[١٩].

لقد أحدثَ سـقوطُ رودس أثرًا كبيرًا وصَدًى واسعًا في أوروبّا، وكان هذا السقوط إيذانًا ببدايةِ صفحةٍ جديدةٍ من الصراع بين الشرق والغرب.

مِنْ مسؤول الجناح الخاصِّ إلى منصب الصدر الأعظم

كانت هناك مفاجأةٌ جديدةٌ بانتظار السـلطان أثناء عودته إلى إسطنبول عابـرًا بحـر "مرمـرة (*Marmara*)"، فقد أنجبتْ لـه حبيبَتُه وأم ابنـه "خُرَّم" مولودةً جديدةً هذه المَرَّة[٢٠].

كذلك فقد شـهد القصر السلطاني في السابـع والعشرين من حزيران/يونيو من عام (١٥٢٣م) حدثًا آخَرَ غير مُتَوَقّعٍ، فبعد أن خدمَ "بيري باشا"

(١٩) أَكْسُونْ، المصدر السابق، المجلد الأول، ص ٢٤٥.

(٢٠) "السلطانة مِهْرِمَاة" هي الابنة الوحيدة للسلطان "القانوني" و"السلطانة خُرَّم"، يعتقد أنها قد ولدت عام (١٥٢٢م)،

obeikandl.com

بنجاح لمدة خمسِ سنواتٍ وتسعة أشهرٍ وأربعة عشر يومًا في منصبِ الصدرِ الأعظمِ فقد تمَّ عَزْلُه، وخُصِّصت له مكافأة تبلغ مائتي ألف عملةٍ عثمانيّةٍ، وعُيِّن مكانه "إبراهيم أغا"[٢١] مسؤول الجناحِ السلطانيِّ الخاصِّ (الذى سيصبح فيما بعد إبراهيم باشا)، وذلك بعد أن حازَ ثقةَ السلطان التي كانت تزداد به يومًا بعد يوم أثناء حملتَيْ "رودس" و"بلجراد" اللتين سبق أن اشترك فيهما[٢٢].

كان تعيين الشابّ المسؤول عن الجناحِ الخاصِّ والبالغ من العمر ثمانيةً وعشرين سنة في منصبِ الصدرِ الأعظم[٢٣] متجاوِزًا كُلَّ الوزراءِ الآخرين حَدَثًا غيرَ عاديّ، ومُخالِفًا للتقاليدِ؛ حيث لم يُقابَلْ هذا التعيينُ بترحيبٍ كبيرٍ في أوساط القصرِ، لكن هذا التعيين يدلّ بوضوحٍ إلى مدى قدرةِ السلطان على اختيار الرجل المناسب ذي الكفاءة العالية، ووضعِه

(٢١) - "براهيم باشا" (١٤٩٥ – ١٥٣٦م)، كان والده صيادًا إيطاليًا من مدينة (جنوة)، حيث ولد "إبراهيم باشا" في منطقة (بارجا) المواجهة لجزيرة (كورفو)، وقد أُخِذَ أسيرًا في إحدى هجمات القراصنة الأتراك، وتم بيعه لامرأة غنية في (مانيسا)، وقد قامت هذه السيدة بتربية ذلك الطفل الذكي الموهوب؛ حيث أعطته اسم "إبراهيم" الشائع في الثقافة التركية، وبفضل ذكائه واجتهاده فقد أتقن "إبراهيم" اللغات الكرواتية والإيطالية واليونانية إلى جانب تعلمه في البداية اللغات التركية والعربية والفارسية، كذلك فقد أظهر تفوقًا كبيرًا في الموسيقى والأدب، وكما يروي "هامر" عنه، فقد كان "إبراهيم باشا" يهوى بشغف الأعمال المتعلقة بالتاريخ والجغرافيا؛ حتى إنه كثيرًا ما كان يطالع تاريخ الحروب التي خاضها القائدان "الإسكندر" و"هنيبال"، وذات يوم وبينما كان ولي العهد "سليمان" -الذي كان في الوقت نفسه حاكم صاروخان (مانيسا الآن)- يتجول في المدينة فإذا به يسمع صوت عزف بديع على الكمان، كان "القانوني" مولعًا بالموسيقى، فأراد أن يتعرف على الشخص الذي كان يعزف، واستطاع "إبراهيم" أن يترك أثرًا لدى ولي العهد بعد أن تم استدعاؤه لمقابلته، حيث بدأت توجه له بعد ذلك الكثير من الدعوات إلى قصر (صاروخان)، وعندما رأت السيدةُ التي تعيش في (مانيسا) العلاقة الوطيدة التي كانت تجمع "إبراهيم" وولي العهد "سليمان" الذي سيصبح بعد فترة على رأس الدولة العلية فقد قامت بعِتْقِ "إبراهيم" -الذي ربَّتْه كابنها- من غُلِّ العبودية ليصبح حرًّا، وكان من ضمن القرارات التي اتخذها ولي العهد "سليمان" عند اعتلائه العرش في الثلاثين من سبتمبر (١٥٢٠م) قراره بتعيين "إبراهيم" ضمن موظفي (الجناح الخاص) الذي كان يعتبر من أقرب المؤسسات إلى حاكم البلاد.

(٢٢) "دنيز أوزر (*Deniz Özer*)"، (الصدر الأعظم الذي غضبت عليه السلطانة "خُرّم")، مجلة العالم التركي التاريخية، إسطنبول (١٩٨٨م)، العدد رقم ٢٤، ص ٢٩.

(٢٣) على امتداد تاريخ الدولة العثمانية كان "إبراهيم باشا" هو أصغر الشخصيات سِنًّا التي تولَّتْ منصب الصدر العظم باستثناء "كوبورلو زاده (*Köprülüzâde*) فاضل أحمد باشا".

في المكان المناسب والمناصب الحساسة وفقًا لقدراته[٢٤].

والحقيقة أن إبراهيم باشا كان على الدوام عند حسنِ ظنِّ السلطان، ولم يكن يخذله إلا نادرًا.

مجمع السلطانة الوالدة حفصة

لقد بدأت السلطانة الوالدة "حفصة" التي كانت مشهورةً بحُبِّها للأعمال الخيرية، في عام (١٥١٣م) بإنشاء مُجَمَّع[٢٥] كبيرٍ في مدينة "مانيسا (*Manisa*)" التي كانت تقيم بها، في الوقت الذي كان ابنها الأمير سليمان يشغل منصبَ حاكمِ ولاية" صاروخان"، وقد كان ذلك المُجَمّعُ الكبيرُ يضمّ مدرسة ودارًا لتحفيظ القرآن للصبيان ومسكنًا وتكيةً للصوفية ومشفًى وحمامًا.

وفي أواخر سنة (١٥٢٣م) بعد عمل استغرق عَشْرَ سنوات، تَمَّ الانتهاءُ من بناء جزءٍ كبيرٍ من هذا الصرْحِ الشامخِ المعروفِ باسم "مُجَمّع السلطانيّة" بما في ذلك الجامع والأبنية المُلحَقة به، ولم يكن ينقُصُهُ سوى المشفى والحمام.[٢٦]

وممّا أدخلَ السرورَ إلى قلب السلطان الشابِّ أن "مجمع السلطانية" التي كانت أمه شغوفةً به جدًّا قد اكتمل بناؤُه بعد ولادَةِ ابنته الوحيدةِ مِهْرِمَاهْ سلطان"...

---

(٢٤) حتى زمن "القانوني" لم يظهر على الساحة خبير في مجال السياسة الخارجية مثل "إبراهيم باشا". فقد استطاع في مدة وجيزة للغاية أن يحل المشاكل التي كانت موجودة في ولاية كبيرة وحديثة العهد من ناحية ارتباطها بالدولة العثمانية كولاية مصر، ومن خلال الإصلاحات التي قام بها استطاع أن يرتقي بمستوى المعيشة في تلك الولاية. وهكذا تمكن من خلال إنجازاته في مصر أن يظهر براعته في ميدان السياسة الخارجية إلى جانب تمتعه بكفاءة عالية في الجوانب الإدارية.

(٢٥) مجموعة من الأبنية تحتوي في داخلها على مسجد ومدرسة ومكتبة وحمام ومشفى وسوق وتكية وزاوية لأجل تحقيق أهداف اجتماعية. (المترجم).

(٢٦) بعد وفاة السلطانة الوالدة "حفصة" قام ابنها السلطان "القانوني" عام ١٥٣٤م بإضافة حمام ومشفى إلى المجمع الخيري الذي ينسب إليها.

وفي نهاية هذا العام أنجبت "السلطانة خُرَّم" أيضًا للسلطان ابنَه الذكر الثاني الأميرَ عبد الله.

زفاف ليس له مثيل!

بعد أَحَدَ عَشَرَ شَهرًا من تولّي إبراهيم باشا مَنْصبَ الصدرِ الأعظم، عقد قِرانَه على أخت السلطان سليمان، التي هي في الوقت نفسه إحدى بنات السلطان "ياووز سليم الأول وبمناسبة الزفافِ أُجرِيَت احتفالاتٌ عظيمةٌ[٢٧] في ساحة "آت (*At*)" ("ميدان سلطان أحمد" حاليًا)، الذي عُرِفَ فيما بعد بـ"قصر إبراهيم باشا".

وبهذا الزفاف الرائع عظُمَتْ مكانةُ وسلطةُ إبراهيم باشا إلى حدٍّ كبيرٍ، فمع أنه لم يتجاوزِ الثلاثينَ من عمره إلا أنه وضمنَ فترةٍ وجيزةٍ -من خلال ذكائه المتوَقِّد، ووفرةِ حيلتِه، وكثرةِ دهائِه، ونضوج خبرته- استطاع أن يُحيطَ ويُمسكَ بمفاصل الدولة، وأن يُظهرَ لِمَنْ حوله مدى تفوُّقِ إدارتِه الداخليّةِ، وعظمةَ حُنْكَتِه على صعيد السياسة الخارجيّة، ولقد ظهر هذا للعلنِ عندما نجح في تجاوز الأحداث التي حصلت في مصر -وكانت مصر قد انضمّت حديثًا كولاية جديدة من ولايات الدولةِ العثمانيّة- واستطاع أن يُحسّن الظروف المعيشية للشعب هناك، وظهرت حُنْكَتُهُ أيضًا حينما استطاع أن يُخمدَ التمرّدَ الذي قام به العلويّون في الأناضول[٢٨].

* * *

(٢٧) استمر هذا العرس التاريخي من الثاني والعشرين من أيار/مايو إلى الخامس من حزيران/يونيو (١٥٢٤م)، لقد كان زفافًا عظيمًا يذكرنا بحكايات ألف ليلة وليلة. حيث نُصب عرش السلطان داخل فسطاط عظيم، تم إعداده من أجل "سليمان القانوني" في ميدان "آت". كما تم تجهيز التعريشات والأرائك والمجالس من أجل الوزراء والأمراء وسائر رجال الدولة. وقد اتجه الوزير الثاني إياس باشا الذي تولى مهمة أن يكون وكيل العريس مع رئيس الإنكشارية إلى السلطان، حيث وجهوا له الدعوة رسميًّا لحضور الزفاف، وقبل "القانوني" الدعوة بعد أن مدح كثيرًا الوزير الأعظم الشاب. ويعتبر استمرار حفلات الزفاف الخاصة بالقصر العثماني القديم لعدة أيام وليالٍ، من أهم السمات التي تلفت النظر في هذه الاحتفالات من ناحية المراسم والتقاليد، (دَانِشْمَنْد، المصدر السابق، المجلد الثاني، ص ١٠٣).

(٢٨) إسماعيل حقي أُوزُونْ جَارْشِيلِي (*Uzunçarşılı*)، التاريخ العثماني، أنقرة (١٩٧٥م)، المجلد الثاني، ص ٣٥٦.

أثناء العرس اقترب السلطانُ سليمانُ من العريسِ إبراهيمَ باشا، وتوجَّهَ إليه بالحديث قائلًا:

- "قل لي: أيُّهما الأروعُ حفل زفافك أم حفل ختان أولادي؟".

أجاب إبراهيم باشا بلا أيِّ تردُّد:

- "لـم يكـن، ولـن يكـون هنـاك أيُّ حفلٍ فـي روعةِ أو جمـالِ حفلِ زفافي!"

أَحَسَّ القانونيُّ بالضيق عند سماعه هذا الجواب غير المتوقَّع، واجتهد لكي يُخفِيَ غَضَبَه سائلًا:

- "لماذا" ؟

فأَجابَه إبرهيم باشا بكلِّ هدوءٍ:

- "إن ذلـك الحفـل لـم يكن فـي روعةِ حفـل زفافـي؛ لأن في حفل عُرْسِـي يوجد السلطانُ سليمانُ: سلطانُ البَرَّينِ والبَحْرَينِ وخادمُ الحَرَمينِ الشريفين، لقد نال زفافي شرفَ حضور جلالتكم!".

ارتاح السلطانُ كثيرًا عند سماعه لهذا الجواب العاقل وعلَّقَ قائلًا:

- "إنني أُهَنِّئُكَ أَلْفَ مَرَّةٍ، لقد أَبْهَرْتَنِي"[٢٩]

أثنـاءَ احتفـالات الزفاف جرى هناك حدثٌ آخر هـامّ ومؤثّرٌ، فقد وُلِدَ الأميرُ "سـليم" الذي سـيجلسُ على العرشِ بعد والده السـلطان سليمان؛ ليحتلَّ بذلك الرقمَ الحادي عشَـرَ ضمنَ تسلسـلِ حكامِ وسـلاطين الدولة العثمانيّة.

(٢٩) محمد هَمْدَمِي شَلَبِي (*Hemdemî Çelebi*)، تاريخ صُولَاكْ زَادَه (*Solakzâde*)، أنقرة (١٩٨٩م)، المجلد الثاني، ص ٤٧٧.

ففي الثامن والعشرين من أيار/مايو من عام (١٥٢٤م) وُلِدَ الأمير سليم ليكون الابنَ الثالثَ للسلطان سليمان من "السلطانة خُرَّم"، الذي بمولده ارتفعت مكانة "خُرَّم" لدى السلطان القانونيّ، بينما أخذت مكانة السلطانة "جلبهار" -أم الأمير مصطفى ولي العهد- تتلاشى شيئًا فشيئًا.

ويعتبرُ قدومُ هذا المولود هو البداية الحقيقيّةُ للعداوةِ والمنافسةِ بين كلٍّ من "خُرَّم" و"جلبهار".

إلهي لا تخذل أُمَّةَ محمد المسلمة!

بدأ الإعداد لحملةٍ عسكريّةٍ كانت موجَّهةٍ ضدّ دولة المَجَر بناءً على عدّة تطوّراتٍ شهدتها المنطقة، كانت من هذه التطوّرات الأعمالُ العدائيّةُ التي قامت بها دولة المجر تجاه السفنِ العثمانيّة، بالإضافة إلى قيام المجرِ بعقدِ حلفٍ عسكريٍّ مع "بوغدان"، هذا إلى جانب ظهور علاماتٍ على نشوءِ إمبراطوريّةٍ أوروبّيّةٍ جديدةٍ تحت قيادة "شارلس كنت (*Charles Quint*)"، لا سيما بعد المُعاهَدة التي تمَّ إبرامها مع الصفويين.

ففي الثالث والعشرين من نيسان/إبريل من عام (١٥٢٦م) وبعد أن قام السلطان بزيارة ضريحَي كلٍّ من "أبي أيوب الأنصاري: خالد بن زيد ﷺ" و"أبي الوَفَا" خرج على رأسِ حملةٍ عسكريّةٍ إلى المَجَر مع جيش قوامُه مائةُ ألفِ جنديٍّ مدجَّجين بالسلاح ومعهم ثلاثمائة مدفع.

تمكَّن السلطان سليمان من الوصول إلى "بلجراد" مع جيشٍ تميّزَ بالدقّةِ والانضباط بعد أن اجتاز "أدرنه" و"صوفيا"، وفي الوقت نفسه فقد تمكّنَ الأسطولُ العثمانيّ المكوَّن من ثمانمائةِ سفينةٍ صغيرةٍ من الوصول إلى المدينة عن طريق نهر الدانوب، وفي أواخر آب/أغسطس وصلت القواتُ العثمانيّةُ إلى سهل "مُوهَاجْ (*Mohaç*)" ولكن العدو لم يكن هناك.

خـرج السـلطان من مركـز قيادته واصطحب معه إبراهيم باشـا وباقي القوّاد والأمراء، وأخذ يتجوّل بين الأفواج العسكريّة مُلقِيًا كلماتٍ مشجّعةٍ يُلهب بها حماسَة جنوده، وكما ينقل لنا المؤرخ "بَجَوِي":

"كان السـلطان الغـازي علـى رأس المجاهديـن، يرفـع يديه المباركتين عند كلِّ عَلَمٍ وراية، دائم الدعاء والمناجاة بعيون دامعة وهو يقول:

– يا إلهي، إن القوةَ والقدرةَ لك، والرعايةَ واللطفَ منك! فلا تخذُلْ يا ربنا ضعفاءَ أمة محمد، وانصرنا على القوم الكافرين". (٣٠)

* * *

وفـي النهاية، دخل جيش الصليبيّين وعلى رأسـه "لايوش الثاني" إلى سـهل "مُوهَاجْ"، وبعد ذلك أخذت الفِرَقُ العسكرية الكرواتية والسلوفانية والسلوفاكية والتشيكية والألمانية والبولندية في التقدم هي الأخرى.

كان فرسـانُ الجيشِ المَجَرِيّ(٣١) هم أكثرُ وحداتِ الجيشِ قوّةً وبأسًا، وكان هؤلاء الفرسـان قد اسـتطاعوا أن يكتسـبوا خبرةً في قتال العثمانيّين لكثرةِ المواجهات التي كانت دائرةً بينهم لسنواتٍ طويلةٍ، بحيث كانت كلُّ وحدةٍ من هؤلاء الفرسان تُقاتل في الغالب كأنها آلةُ حرب ملتهِبَة.

وقبيـل العصـر، شـرعَ الجيـشُ المجريُّ فـي الهجوم بعـد أن كان قد نفـد صبره، وبعد اشـتباكاتٍ عنيفةٍ بين الطرفين بـدأت وحَدَاتُ العثمانيّين الذين يتمرْكَزونَ في قلبِ الجيش في الانسحاب بِناءً على خُطَّةٍ موضوعة، وفـرح الفرسـان المجريُّون وبدؤُوا يُلاحقون جنـودَ الجيش العثمانيّ دون أن يُدركـوا الفـخَّ الذي كان بانتظارهم، وخلال فتـرةٍ وجيزةٍ وجد الجيش

(٣٠) أَكْسُونْ، المصدر السابق، المجلد الأول، ص ٢٥٨.

(٣١) يروى أن جيش المجر كان قوامه مائة وخمسين ألف شخص ومجهز بحوالى مائة مدفع.

المجريّ نفسه بكامل وحداتِهِ مُحاصَرًا من قِبَل قوّات العثمانيين؛ بعد أن تصدّع من كثرةِ الحِمَمِ والنيرانِ التي كان يقذفها الجيش العثمانيّ.[٣٢]

كان هناك قرابةُ ثلاثمائة مدفع تَصُبُّ نِيرانَها في وقت واحدٍ دون توقُّفٍ، ساحِقةً أَمَامَها الفِرَقَ المَجَريّة المُدَرَّعة، ومن ناحية أخرى فقد غادَرَ السلطانُ الهَضبةَ التي يوجد بها مركز قيادته مُتَقَدِّمًا بنفسِهِ صَوبَ الخطوط الأمامية، وقد تَمَكَّنَ الفرسانُ التيماريون[٣٣] بعد مدَّةٍ قصيرةٍ من تضييقِ الخِنَاقِ حول الجيش المسيحي، ولم يترك للمجريّين سوى مَخْرَجٍ واحدٍ للهربِ من جهةِ مستنقعِ "كاراسو (*Karasu*)".

لقي عشرات الآلاف من جنود الأعداء مَصْرَعهم في ذلك المستنقع بعد أن وصلوا إلى حالة من الإعياء والضعفِ الشديدين، فمنهم من قُتِلَ بالسيف، ومنهم من قُتِلَ بنيرانِ المدافعِ أو البنادق، في حين سقطَ الآلافُ أيضًا منهم أَسْرى.

لم يستطع أحدٌ من الأعداءِ أن ينجوَ بنفسه في هذه المعركة، أما الملك "ليوش" الثاني، فقد لقيَ حَتْفَهُ غريقًا في المستنقع وقد رافقه في رحلةِ الموتِ هذه جميعُ قوَّادِ جيشه وسبعةٌ من الأساقفة.

(٣٢) أَقْسَمَ خمسةٌ وثلاثون فارسًا مَجَريًّا منذ ثمانية وثلاثين يومًا قبل ذلك الوقت في (بودابست) أمام ملكهم على أن يُضَحُّوا بأرواحهم في سبيل قتل "السلطان سليمان"، اشتد وَطِيسُ المعركة، وانخرَطَ جنودُ الإنكشارية في قتال شديد، ولم يَبْقَ حول السلطان سوى وَحْدَةٍ عسكرية صغيرة، وأخذ الفرسان الخمسة والثلاثون في الاقتراب من السلطان مُستَغِلّينَ تلك الفرصةَ، فتقدموا نحو السلطان وهم يقاتلون بشجاعة وبأس شديدين، ولقي اثنان وثلاثون فارسًا من هؤلاء الفرسان مَصْرَعهم في سبيل ملكهم، ولكن دون أن يتمكنوا من بلوغ موضع السلطان، وتبقى من هؤلاء الفرسان "مرجزالي" واثنان من الفرسان نجحوا في الوصول إلى السلطان، وعندما رأى السلطان انشغال الضباط المكلفين بحمايته والدفاع عنه بالحرب، وأنه قد أصبح وحيدًا، استَلَّ سَيفَه الطويل ذا المقبض الماسي، فأخذ الفرسان المجريون الثلاثة في إطلاق السهام نحو السلطان، لكن عِدَّةَ سِهَام لم تنجح في أن تَمَسَّ جسده وإن كانت اخترقت دِرْعَه فحسْب، وسرعان ما أخذ "القانوني" في مبارزة الفرسان، حتى تمكن من أن يحصد أرواحهم جميعا؛ الواحد تلو الآخر. (يُلْمَازْ أُوزْتُونَا، قصص حياة السلاطين العثمانيين، إسطنبول، الجزء ٢١، ص ٢).

(٣٣) الفرسان التيماريون: اصطلاح عثماني يُطلق على الفرسان المدرَّبين من ذوي الكفائة العالية، ويعبر عنه في عصرنا مثلا "القوات الخاصة" أو "الحرس الجمهوري" أو "قوات الصاعقة". (المترجم).

وبهذا النصر، استطاع السلطانُ سليمان تدميرَ الإمبراطوريّةِ المَجَرِيّةِ بضربةٍ واحدةٍ، بعد أن دامت قرابة ستِّ مائةٍ وسبعةٍ وثلاثين عامًا.

في اليوم التالي، نظَّم السلطانُ احتفالًا كبيرًا في سهل "مُوهَاجْ"؛ حيث كانت المراسم الفخمةُ لتلك الاحتفاليّةِ بمثابة تجسيدٍ لعاداتٍ وتقاليدَ عاشت مدّة ألفِ عامٍ مع الأتراك، أما السلطان سليمان فقد تقبَّلَ التهانيَ من جيشه، وسمح لجنوده وقوادِ الأفواجِ والأَلْوِيةِ -وعلى رأسهم إبراهيم باشا- أن يُقَبِّلُوا يَدَيهِ.

* * *

وبحلول اليوم الثامن، بدأ الجيش العثماني، وعلى رأسه السلطانُ فاتِحُ المَجَرِ، في التحرُّك من "مُوهَاجْ" إلى أن دخل "بودين"، وبذلك تصير خزينةُ مملكة المَجَرِ -التي دامت ستَّ مائة وسبعةً وثلاثين عامًا- تحت إمرةِ السلطان سليمان القانونيّ.

كَلَامُكَ حُلْوٌ ووجهُكَ وَجْه يوسف

في تلك الأيام المليئةِ بالإثارةِ ورائحةِ الدم والموتِ والبارود، التي يعيشها السلطان، وصلتْ إليه من "السلطانة خُرَّم" رسالةٌ تُحرّك القلبَ وتَمَسُّ الرُّوحَ.

بدأت "خُرَّم" خِطابَها بكلمات مثل: "الحبيب ذو الوجه الورديّ" و"سلطاني حبيب روحي"، واستمرت في رسالتها كاتبة له:

> "يا مَنْ يُداوي قلبي الحَزِينَ، يا مَرْهَمَ فؤادي الجريح، إن عِشْقَك هو سلطانُ عَرْشِ قلبي، لو كنتُ أملك سعادةَ العالم كلِّه فأنا في النهاية جاريةٌ لديك...

أتضرّع بقلبٍ قد احترق مائةَ ألفِ مرّةٍ:

سلطاني، يا جنةَ فردوسي!

إن الدنيا الغَدَّارةَ تُؤلمني بظُلْمِها، وتطعنُني في جَنَبَاتِي بخَنَاجِر الفِرَاق، إنها لا ترى دمعاتي المسكينة.

إذا ما فَقَدْتُكَ يا مَنْبَعَ جَنَّتي الأبديّة، فستنقلِبُ سعادتي إلى شقاءً، وسينقلب عالمي إلى تعاسة محقَّقةٍ، لقد احترق الإنس والجن من هَوْلِ أَلَمِي وصِيَاحي يومًا بعد يوم...

وأرجو من الله ﷻ أن يرحم دموعي، وييسر أموري، فيرد لي الحياة، وينقذني من ألم الفراق والبعاد...!

"يا سلطاني الرائع اللطيف...

يا من أرى فيه جمالَ يوسف، وأتذوّق بكلماته حلاوةَ العسل المُصَفّى، إنني أبتهل إلى الله وأدعوه كي يُنِيرَ وجهي برؤية طَلَّةِ وَجْهِك المباركة!

يا تُرى.. لو كانت البحار مدادًا لكلماتي، والأشجار أقلامي، فهل سيكفي هذا للتعبير عن آلامي ببعدك عني وفِراقِك لي؟!..

من يُريد أن يفهم ألم الفِراق فليقرأ سورة يوسف، ليُدرِك آلام المشتاق وهمومه...

سلطاني، يا نُورَ عيني! عندما لا أجدك بجانبي أخشى أن تحترق الدنيا بأسرها من نار آهاتي... وفي الفجر عندما يغيب عني وجهُك الورديُّ أخشى أن ينفرطَ عِقْدُ الأكوانِ من بُكائي وأَنِيني.

إن حنيني إليك يا بدر الاشتياق يُشْعِرُنِي بالنهار وكأنه ليلٌ حالك السواد، بل إن الدنيا كلها تسوَدّ أمامي عند فراقك.

فراقُك يامليكي قد كواني   وبعدُك قد سبى منّي جناني

فآهٍ من بِعادِك ثُمّ آهٍ   من الأشواقِ ياملك الزمانِ

يا لَهَوْل هذا الاشتياق، آهٍ من الاشتياق، آهٍ من الاشتياق [٣٤]"
آه يا سلطاني... لا يوجد حدٌّ لأَلَمِ الحَنِين، فإذا أردتم تخفيفَ هذا الألم عني، فلا تتأخروا في إرسال خطابكم الغالي؛ عسى أن تَجِدَ رُوحِي فيه السَّلْوَى والراحة!

الفقيرة الذليلة، جاريتكم "خُرَّم". [٣٥]

* * *

إن "خُرَّم" في رسالتها تلك تُشِيرُ إلى الفراق الأليم الذي حلّ بها.

لقد كانت "خُرَّم" تسعى إلى أن تأخذ السلطانَ من العالم الذي كان يعيش فيه -الذي لم يكن به سوى صهيلِ الخيولِ، ووقعِ السيوفِ، وقرعِ الطبولِ- إلى عالَمٍ آخَرَ، هو عالَمُ العِشْق والفنِّ والشِّعْر، وكانت تقصد بهذه العباراتِ الغزليَّةِ اللطيفة أن ترقِّقَ قلبه العسكري المتين.

وفي نهاية الرسالة، نراها تتحدّث إلى السلطان عن أبنائها محمد وعبد الله[٣٦] وسليم ومِهْرِمَاهْ، وتضيف إليه كذلك سَلامَ نَجْلِهِ الأمير مصطفى.

وعلى الرغم من أن "خُرَّم" قد نقلت إلى السلطان حتى سلام جاريته "جُولْفَمْ (*Gülfem*)" إلا أننا لا نجد ذِكْرًا على الإطلاق لوالدة الأمير مصطفى السلطانة "جولبهار (*Gülbahar*)" (ت: ١٥٨٠م)[٣٧]، التي كانت في ذلك الوقت تعيش معها في القصر السلطاني، ولعله من الجدير بالذكر

(٣٤) أصل هذا البيت لم يتم العثور عليه، ولكنني على قناعة من أن المعنى الذي يمكن فهمه عند قراءة الشطر الأول، وارتباط كلمة الاشتياق بالشطر الثاني تفهم على هذا النحو :

إن حنيني يا بدر الاشتياق يأتي كالليل الذي يطرق الأبواب

ياله من مصيبة هذا الاشتياق، آه من الاشتياق، وآه من الاشتياق

(٣٥) جَاغَاتَايْ أُولُوجَايْ (*Çağatay Uluçay*)، رسائل العشق للسلاطين العثمانيين، إسطنبول (٢٠٠١م)، ص ٤٠-٤٣.

(٣٦) لقد توفي "الأمير عبد الله" بعد فترة وجيزة.

(٣٧) جُوكْبِيلْجِينْ، المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٥٩٤.

obeikandl.com

الإشارةُ هنا إلى أن هذا يُعَدُّ دليلًا ملموسًا على مشاعرِ الغيرةِ ونيرانِها، التي كانت تضطرمُ بين السلطانتين في تلك المرحلة.

* * *

لقد أثار السلطان صانعُ نصر "موهاج"، وفاتحُ قلاعِ المَجَرِ ومدينة "بودين" العظيمة مَشَاعِرَ والِدَتِهِ السلطانة "حفصة، لقد كان ابنُها البطل يُحرز الانتصارات في المعارك الكبرى، ويفتح القلاع أينما ذهب، فأيُّ سعادةٍ يا تُرَى أكثر من هذا قد تنالها أُمٌّ، وهي ترى ابنها يحقّقُ كلَّ هذا النجاح.

كانت السلطانة الوالدة حفصة تُذَيِّلُ رَسَائِلَها بـ"المتوكلة على الله" أو "والدة السلطان سليمان شاه" شاعرةً بالفخر بأنها أمٌّ لابنٍ مثل سليمان(٣٨).

نَصَرَكَ الله على الكافرين

بينما كان السلطان سليمان في "بودين" وَصَلَه الخطابُ الثاني من "خُرَّم". وفي هذه الرسالة الثانية كانت "خُرَّم" تُناجِي السلطان سليمان على النحو التالي:

"سلطاني ومليكي!

إن بكائي واشتياقي ولوعتي تفيضُ بآهاتي الحزينة ودموع عيني وتعاسة قلبي.

إن قدَري أن أتألّمَ لِغَيبَة طَلَّتك البهيّة التي فاق نورُها ضياء الشمس، ولكن حيرتي واندهاشي قد زادا مع طول غيبتك وانحجاب وجهك البديع عني...

"سلطاني يا حَبِيبَ قلبي ونفسي... يا مَلِيكي، يا مَنْ مَلَكْتَ رُوحِي إنك أَمَلي في الدنيا والآخرة!

(٣٨) أُولُوجَايْ، رسائل العشق للسلاطين العثمانيين، إسطنبول (٢٠٠١م)، ص ٧٨.

كان الله في عونك، اللهمّ كن معه، وسخر له كلّ أجزاء الكون، وأبعد عنه الأمراض والأسقام، والطُفْ به لطفًا أبديًّا بحرمةِ وجه حبيبك محمد ﷺ واجعلْ أرواح أوليائك الكرام إلى جواره، واجعله إلهي مظفّرًا ومنصورًا على الكفار في كل زمانٍ ومكانٍ...".

"يا سلطاني، إن خِطَابَكَ وكَلِمَاتِكَ التي وَصَلَتْ إلَيَّ قد أحيَتني ورَدَّتْ إليّ الرُّوح، لقد بعث خطابُك النورَ في عيوني المظلمة، وأَبْهَجَ قَلْبيَ الحَزِينَ، فيا لَسَعَادَتِي! أرجوك ...لا تتوقَّفْ أبدًا عن إحياءِ قلبي وروحي...

"سلطاني.. لقد جاء أَحَدُ الأولياء الصالحين من مكة المكرمة، وقال: إنه قد شاهَدَ رسولَ الله ﷺ في الرُّؤْيَا، وقد أَمَرَهُ سَيِّدُ الخلق ﷺ أنْ يُجَهِّزَ قميصًا مخصوصًا يرتديه السلطان سليمان في الجهاد، فأطاع ذلك الوليُّ أَمْرَ النبي ﷺ، وعرض الأمر على "شَهْرِسْتَانِي (*Şehristânî*)" وبعدما تحرَّى هذا الأخير الأمر وتأكد من صدق هذا الرجل، سَلَّمَ القميصَ إلى "أمره كوجا (*Emre Koca*)"، وقد أرسله "أمره كوجا" بدوره إلينا، وها أنا ذا أرسله إليكم.

وإني أستحلفك بالله ﷻ وبحرمة النبي ﷺ أن لا تمتنع عن لبس هذا القميص المبارك".

الفقيرة الذليلة، جاريتكم "خُرَّم" (٣٩)

كانت "خُرَّم" حريصةً على أن تُزَيِّنَ خطاباتها إلى السلطان بأبيات من الشعر تفيض رِقَّةً وعُزُوبةً تنثرها بين سطور هذه الخطابات:

أَيَا رياح الصبا! قُولِي لسلطاني: كم أنا مشتاقةٌ وبي لوعةٌ!
قُولِي له: إن فراقي لوجهه الورديّ قد جعلني كالبلبل الجريح،
أَخْبِرِيه أنَّ أَلَمي لم يَجِدْ له أَحَدٌ دَوَاءً أو عِلاجًا،
لقد صارَ قلبي مَرْتَعًا للآلام والأحزان التي سَكَنَتْهُ،
قُولِي له: إنه قد صار كالناي مَرِيضًا وهَزِيلًا من أَثَرِ الفراقِ"

(٣٩) أُولُوجَايْ، رسائل العشق للسلاطين العثمانيين، إسطنبول (٢٠٠١م)، ص ٤٨-٤٩.

وكما نرى فقد كانت "السلطانة خُرَّم" تتضرع إلى الله ﷻ؛ من أجل أن يحفظ اللهُ السلطانَ ويرعاه، وتبتهل إلى المولى ﷻ؛ لكي يُبعِدَ عنه المرض والمصائب والأحزان، كما كانت تلتمسُ بركةَ النبي ﷺ والأولياء الصالحين من أجل أن ينتصرَ في حروبه ويفوزَ على الكافرين، لقد قامتْ بنفسها بخياطةِ القميصِ الذي حدَّد هيئتَه رسول الله ﷺ في الرؤيا، وأرسلتْه إلى السلطان وهي مُصِرَّة على أن يرتديه أثناءَ الجهاد.

وإذا كان يتّضِحُ من الخطاب مدى غَلَبة الشعور الدينيّ والصوفيّ، فإنه لا يغيب عن أنظارنا أيضًا فَيضُ المشاعر الجيّاشةِ التي تعبّرُ عن أحاسيسِ الفراق والاشتياق.

يتضح لنا كذلك بشكلٍ جليٍّ -من خلال تلك الخطابات التي كتبتها "خُرَّم" الشابَّة ذات الاثنينِ والعشرينَ ربيعًا وبشكل لا يمكن الجدال فيه- مدى تفوُّقِها الكبير في مجال الأدب، وتمتُّعِها بحسٍّ بلاغيٍّ عالٍ، سواءٌ في الشعر أم في النثر، إلى جانب تمتُّعِها بمشاعرَ دينيَّةٍ وصوفيَّةٍ وتراثيَّةٍ(٤٠).

كذلك تشير تلك الخطابات أيضًا إلى أن "خُرَّم" قد وصلت إلى درجة عاليةٍ من التعليم، سواء أكان من ذلك النوع المتاحِ في القصرِ أم من مصادرَ مختلفةٍ، كما تدلّ تلك الخطابات بقوّةٍ على ما كانت تتمتّعُ به من ذكاءٍ وفطنةٍ.

كان السلطان سليمان الذي أَخْضَعَ أقوى الجيوشِ الأوروبّيَّةِ في فترةٍ وجيزةٍ، قد قابَلَ أشعارَ "خُرَّم" المليئةَ بالأحاسيسِ والحبِّ والعاطفةِ، بإرساله إليها بأشعار مُفْعَمةٍ بالمشاعر والأحاسيس والحبّ الممتزجِ بالعاطفة الدينية:

(٤٠) في تلك الأثناء أنجبت "خُرَّم" مولودا آخر هو "الأمير جهانجير"، وإذا استثنينا ابنتها الأولى "مِهْرِمَاهْ" فإن كل أمير كانت "خُرَّم" تنجبه للسلطان كان من العوامل التي تقربها أكثر منه.

لا تَسَلْ مجنونًا ما الحب لِيَشْرَحَهُ لك فإنه مجنون،
ولا تكشفْ سِرَّ الحب لـ"فرهاد" فهو مجرد أسطورة،
إذا أردتَ أن تسأل عن رموز العشق فسَلْنِي، فأنا بها خبير،
إن العاشِقَ يترك لمحبوبه رُوحَه وعَقْلَه وقد عَمِيَ عَمَّا سِواهُ،
تعالي وشاهدي فؤادي الذي صار كالقصر.
إنه دار مزينة وقد نُقِشَت جدرانُها بدموع عيني الحمراء الدامية [٤١]

* * *

إلـى جانب هذا نجد السـلطان في الرسـالة التي أرسـلها إلـى "خُرَّم" من المَجَرِ يخاطبها قائلا:

"إنني أشتاق إليك يا زوجتي "خُرَّم"،
ولا أرى سواكِ في أحلامي."[٤٢]

ثم يُزَيِّن رسالته بالأشعار التالية:

أيها الطبيب! إن ألم رأسي يزداد، فاتركني كي أرتاح،
إنني مريض بالعشق ولن يفيد في علاج ألمي ما عُرِفَ من دواء،
يا حبيبي! لقد صرت مجنونًا منذ أن عشقت ليلى،
حتى صارت الطيور تصنع أعشاشها فوق رأسي.

حصار فيينّا

اتفقَ أغلب أمراءِ المجر على اختيار أميرٍ جديدٍ لمنطقة "أردل" -وهي الآن أحد أقاليم دولة رومانيا- ألا وهو الأمير"يانوش (*Yanoş*)" الذي اعتلى عرش المَجَرِ بتأييدٍ من الدولة العليّة العثمانية، وبعد اعتلاء الملك الجديد

(٤١) أُولُوجَايْ، رسائل العشق للسلاطين العثمانيين، إسطنبول – ٢٠٠١م، ص ٢٢.

(٤٢) نَجَاة ر. أُوجْتُومْ (*Nejat R. Uçtum*)، الرسائل المكتوبة من قبل السلطانتين "خُرَّم" و"مِهْرِمَاهْ" إلى ملك بولندا "زيجموند الثاني"، دورية علمية، (١٩٨٠م)، الجزء الرابع والأربعون، العدد ١٧٥، ص ٧٠١.

obeikandl.com

عـرشَ المجـر رجـع الجيش العثمانـيّ إلى إسـطنبول، لكن بعـد مغادرةِ الجيشِ العثمانيّ أراضيَ المجَر قام باقي أمراءِ ووُجهاءِ المجَر المناهضين لاعتـلاءِ "الأميـر يانوش" عرشَ المَجَـرِ في "أردل" بتصـرُّفٍ غريبٍ حيث قاموا بتنصيبِ قائدِ جيشِ النمسا وأحد عقلائها ونُبَلائها "فرديناند" ليجلسَ على عرش المجر.

وهكـذا أصبح للمجـر مَلِكان، أحدهمـا مدعوم من قِبَـل العثمانيين، أما الآخر فمدعوم من إمبراطور ألمانيا.

قـام "فرديناند" بعـد مغادرة الجيـش العثمانـي للبـلاد بالهجوم على "بوديـن"، وبِنـاءً على الوعد الذي قطعه السـلطان سـليمان بحمايةِ الملكِ "يونوش"، فقد خرج السـلطان من دار السـعادة وعاصمة الدولة العثمانية -إسـطنبول- على رأس جيشٍ جَرَّارٍ قوامُه مائتين وخمسـين ألف جندي، وذلك في أيار/مايو من عام (١٥٢٩م)[٤٣].

دخل الجيشُ العثمانيُّ المَجَرَ عابرًا شبه جزيرة البلقان، وقام السلطان سـليمان بتتويـج "يونوش" مَلِكًا علـى المجر في احتفاليّةٍ مهيبةٍ، ثم سـار بعدها الجيش السلطاني بعد أن استعاد "بودين" في اتجاه "فيينا" التي يوجد بها "فرديناند"[٤٤].

ولـم يكن الوقت الـذي صادف أواخر أيلول/سـبتمبر ١٥٢٩م ملائمًا لإقامـةِ الحصـارِ حولَ "فيينـا"، فاضطرّ العثمانيون في نهايـة اليوم الحادي والعشـرين إلى رفـعِ الحصارِ؛ بسـببِ الظروف المناخيّةِ القاسيةِ في فصل الشتاء، وعاد الجيشُ العثمانيُّ إلى بودين وبصحبته ستين ألف أسير.

(٤٣) أُورُونْ جَارْشِيلِي، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٣٢٩-٣٣٠.

(٤٤) في أثناء حصار (فيينا) وصلت هجمات العثمانيين تحت قيادة "محمد بك" ابن "بالي بك (*Bâli Bey*)" حتى مدينة "راتيسبون (*Ratisbon*)" الواقعة في مقاطعة" بافاريا (*Bavyera*)" وكذلك بلغت مدينة "برون (*Brün*)" إحدى مدن التشيك،

أثناء هذه الحملةِ العسكريّةِ كان إبراهيم باشا يشغلُ عدّةَ مناصبٍ، فقد كان يشغل منصبَ الصدرِ الأعظمِ، ومنصبَ قائدِ الجيش، وفي الوقت نفسه كان إبراهيم باشا أيضًا هو كبيرُ أمراءِ وقوّاد الدولة العثمانيّةِ على الأراضي الأوروبيّة، وبعبارة أخرى يمكن أن نقول: إن إبراهيم باشا كان يجمع في يديه كافّةَ الصلاحيّات السياسيّةِ والعسكريّةِ والإداريّةِ، وعلى هذا النحو أصبح لإبراهيم باشا اسم جديدٌ صار يطلق عليه، ألا وهو "مقبول باشا"(٤٥).

وفاةُ السلطانةِ الأمّ "حَفْصَة"

بعد أن اطمأنّ "السلطان سليمان" إلى استقرار الأوضاع على الجبهةِ الغربيّة، قرّرَ أن يتوجَّهَ صوب الشرق.

لقد كانت إيران منذ حكم الصفويّين في صراعٍ مريرٍ مع العثمانيين، وكان شاه إيران "طهمسب" يمارس ألاعيبَه القذرةَ على أراضي الأناضول كلما سنحت له الفرصةُ، وعندما كانت حركاتُ العصيانِ والتمرُّد تندلعُ، كان الصفويون ينتهزون الفرصةَ ويعملون بكلِّ جهدهم على تأجيجها وعلى إذكاء رُوح الفِتنة؛ لذلك ومن أجل وضع حدٍّ لهذه المسألة فقد اتّخَذَ "السلطان سليمان" قرارَهُ بتوجيهِ حملةٍ عسكريّةٍ إلى الشرق(٤٦).

لقد كانت لدى "السلطان سليمان" رغبةٌ قويّةٌ في السيطرة على بغداد وإخضاعها إلى الدولة العثمانية، ومن أجل تحقيق تلك الرغبة تَمَّ أولًا

(٤٥) يروى أن هذا التعيين في منصب الصدر الأعظم قد تم بسبب اتساع رقعة الدولة، وتنامي وزيادة الأعمال؛ حيث يروى كذلك أن "سليمان القانوني" قد أعرب عن هذا الأمر قائلًا: "ليس من المناسب أن يبتّ السلطان وينظرَ في كل شيء". (أَكْسُونْ، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٦٤).

(٤٦) كان لدى "شلبي" دراية واسعة بالأمور المالية، حيث استطاع أن يحتفظ بمنصب "باش دفتردار" لسنوات طويلة. ولقد كان لدى "سليمان القانوني" ثقة كبيرة واعتماد عليه. ومن أجل الاستفادة من خبرته في "حملة العراق" فقد قام بتعيينه في منصب "كتخدا سر عسكر" إلى جانب "إبرهيم باشا" الذي أوصاه "القانوني" بنفسه عند التحرك من "دار السعادة" قائلًا: "إن "إسكندر شلبي رجل عالم وخبير، فلا تخالف رأيه".

إرسال الصدر الأعظم "إبراهيم باشا" على رأس جيش في شهر تشرين الأول/أكتوبر من عام (١٥٣٣م). كذلك فقد تمّ تعيينُ رئيسِ دفتردار "إسكندر شلبي (*İskender Çelebi*)" بِنَاءً على سابق خبرته وتجربته في وظيفة مستشار وقائم بأعمال الصدر الأعظم.

وفي أثناء حملة الشرق الموجّهة ضدّ إيران، حدثت واقعة أليمة هزَّتْ أرجاء القصر العثماني؛ إذ تُوُفِّيَت السلطانةُ الوالدةُ "حفصة" في التاسع عشر من آذار/مارس من عام (١٥٣٤م) الموافق الرابع من رمضان من عام (٩٤٠هـ) عن عُمْرٍ يُناهِزُ السادسةَ والخمسينَ عامًا،[٤٧] حيث ظلَّت السلطانة "حفصة" تتمتّع بلقب "السلطانة الوالدة" لمدّة ثلاثَة عَشَرَ عامًا وخمسة شهور وسبعة وعشرين يومًا، كانت خلالها هي المسيطرةُ على جناح الحريم بوصفها "والدة السلطان"، كما كانت في الوقت نفسه محبوبةً من الجميع، لقد كانت السلطانة "حفصة" معروفةً بين الناس أنها تُحبُّ القيام بأعمال الخير، إلى جانب اشتهارها برقّة القلب والرحمة والشفقة، ولقد تمَّ دَفْنُ السلطانة "حفصة" في صَحْن جامع السلطان "سليم"، بالقرب من قبر زوجها السلطان "ياووز سليم"؛ حيث قام ابنها السلطان "سليمان القانوني" فيما بعد بإنشاء مقبرةٍ فخمةٍ هناك[٤٨].

وبِناءً على ما يذكره بعض المؤرخين، فلقد كانت وفاةُ السلطانة "حفصة" نقطة تحوّلٍ هامّة للغاية، آذَنَتْ ببداية ما عُرِفَ في القصر العثمانيّ باسم "سلطنة النساء".

(٤٧) علي حَيْدَرْ بَيَاتْ (*Haydar Bayat*)، السلطانة حَفْصة، الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة التركية، إسطنبول - ١٩٩٧م، الجزء التاسع، ص ١٢٢.

(٤٨) لقد انهدم هذا الضريح الفخم في زلزال عام (١٨٩٤م)، ولم يتم ترميمه رغم مرور حوالي مائة وعشرين عامًا على إنشائه.

وكما يقول لنا "إسماعيل حامي دَانِشْمَنْد": فإن "السلطانة خُرَّم" قد بدأت تستغلّ ضَعْفَ السلطان تجاهَهَا، والنفوذَ الكبيرَ الذي نالَتْه بِناءً على هذه العاطفة التي يكنُّها نحوها السلطانُ في تحقيقِ مصالحِهَا الشخصيَّةِ[٤٩].

لقد أصبحت "خُرَّم" هي قُرَّةَ عين السلطان بعد أن أنجبت له الأطفالَ ونجحت في جَذْب انتباهِهِ من بين بقيّةِ الجواري، لكننا لا نستطيع القول إنها قد أصبحت المُهَيمِنةَ على السلطان تمامًا، في الفترة التي كانت فيها السلطانة "حفصة" على قيدِ الحياة.

بالطبع لقد كانت لها مكانة مرموقة بين بقيّة الجواري الأخريات، لكن بعد وفاة السلطانة الأمّ، وبفضل الأطفال الذين أنجبتْهم للسلطان، نالت حريَّتَها بعد أن عاشت في القصر -كجارية- فترة من الوقت.

* * *

كانت "ماهيدوران جلبهار خاتون (*Mâhidevrân Gülbahar Hatun*)" أُمُّ الأمير مصطفى هي قُرَّة عينِ السلطان والمفضلةُ لديه في تلك الأثناء التي بدأت تتفوّق فيها "خُرَّم" على غيرها من نساء القصر، وتسعى لجذب انتباه السلطان سليمان، ولكن مع تنامي حبِّ السلطان لجاريته الجديدة "خُرَّم" بدأت مشاعرُ الغيرةِ الشديدةِ والنفورِ الواضحِ تتصاعدُ بين الاثنتين، ولكن هذا الجوَّ السلبيَّ والمشحون بين المرأتين المتنافستين لم يظهر ويتّضح للسلطان القانونيّ إلا بعد وفاة أمه، التي كانت تُسَيطِرُ -وبِشِدّةٍ- على جناح الحريم في القصر، لكن بعد وفاة السلطانة "حفصة" تزايد الصراع حِدَّةً بين كلٍّ من "خُرَّم" و"مَاهِيدَورَانْ"؛ حيث دخلتْ المرأتانِ في طورٍ أكبر وأوضح من العداوة المستمرة التي لا تهدأ.

(٤٩) دَانِشْمَنْد، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ١٦٢.

وقد تصاعدت حِدّة التوتّر بين هاتين المرأتين، وظهر التناحرُ والتباغضُ والتنافسُ من كليهما بشدّة، حتى وصل الأمر بالسيدة "ماهيدوران جلبهار" أن تطاولت مرّةً على منافستها "خرم"، وأهانتها إهانةً بالغةً؛ حيث لَطَمَتْها على وجهها بكلّ قسوةٍ، ودون شفقة[٥٠].

وعندما عَلِمَ السلطان بالواقعة تدخّل في الأمر، وقام بإرسال "ماهيدوران جلبهار" إلى ابنها وَلِيّ العهد الأمير مصطفى الذي كان في ذلك الوقت يتولّى حكمَ "صاروخان (*Saruhan*)" (أي: مانيسا)، وعلى الأرجح أنه قد عَقَدَ قِرانَه على "خُرَّم" بإصرارٍ وإلحاحٍ منها.

وبناء على ما يرويه سفير ألمانيا "بوسبيك (*Busbecq*)":

لقد كان "القانوني" يحبّ تلك المرأةَ (أي: خُرّم) إلى درجةِ أنه قد رفعها إلى مرتبةِ الزوجةِ الشرعيّةِ، كما قام بإعدادِ وتجهيزِ جهازِ العروسِ من أجلِها، وهو ما يُعَدُّ في عُرْفِ الأتراك علامةً واعترافًا بحدوث زواجٍ شرعيٍّ ورسميّ.[٥١]

استسلام بغداد بدون مقاومة

تَوَجَّهَ "إبراهيم باشا" إلى "حلب" أوّلًا فدخلها، وكانت نيّته أن يستولي على بغداد عن طريق "الموصل"، لكن الدفتردار[٥٢] "إسكندر باشا" نَصَحَه أن يَتَّجِهَ بدلًا من ذلك إلى مدينة "تبريز"، وبحلول الثالث عشر من حزيران/يوليو من عام (١٥٣٤م) أصبحت "تبريز" جزءًا من الدولة العثمانية بدون الدخول في حرب.

(٥٠) لم يكن السلاطينُ مُلْزَمِين بعَقْد القران على الجواري.

(٥١) أُوجْتُوفْ، المصدر السابق، ص ٦٩٨.

(٥٢) الدفتردار: اصطلاح عثماني يطلق على القائم بأعمال أموال الدولة، مثل وزير المالية أو الاقتصاد في عصرنا. (المترجم)

وبعد أن قضى "السلطان سليمان" فصلَ الشتاء في إسطنبول توجَّه إلى "تبريز" بِناءً على دعوة "إبراهيم باشا" الصدرِ الأعظمِ؛ حيث وصلها في أواخر أكتوبر، وبدون أن يضيّعَ أيَّ وقتٍ استطاعَ أن يصلَ إلى بغداد في غضونِ سبعةِ أيّامٍ، كان والي بغدادَ قد انسحب من المنطقةِ، وترك بغدادَ -دون أيّ مقاومةٍ تُذكر- قبل وصولِ القوّاتِ العثمانيّةِ؛ حيث استسلمت المدينةُ والقلعةُ بمنتهى السهولة في يوم الثامن والعشرين من تشرين الثاني/نوفمبر من عام (١٥٣٤م).

وبعد يومين من استسلامِ بغدادَ، ووسط جَوٍّ مليءٍ بالثناء على السلطان، والدعاء له من البغداديّين، دخل السلطان القانوني إلى بغداد فتوجّهَ أوّلًا وقبل كل شيءٍ لزيارة ضريح الإمام الأعظمِ "أبي حنيفة النعمان" ﷺ مؤسّس المذهب الحنفيّ، ثم أمر بتشييد ضريحٍ جديدٍ وعظيمٍ له بدلًا من ذلك الضريح الذي خَرَّبَه غُلاةُ الشيعة [٥٣].

ثم أمر "السلطان سليمان" -خلالَ الأربعة أشهرٍ التي مكثها في بغداد- بإحصاء وتسجيل الأراضي الموجودة في المدينة، وفي نفس الوقت قام "السلطان سليمان" كذلك بتطبيقِ القوانينِ المُتّبَعَةِ في الدولة العليّة العثمانيّةِ، فيما يخصُّ "قطاع الزراعة" من ناحية كيفيّة إقطاع الأراضي الزراعيّة، ومنحِ حقِّ الانتفاعِ بها، وذلك من خلال مجموعةٍ من اللوائحِ الإداريّةِ التنظيميّةِ التي تكفُلُ تحقيقَ العدالةِ، ومن خلال هذه الإجراءات التي اتّخذها السلطان استطاع أن يبرهن ويثبت براعته ودقّته فيما يتعلّق بالإدارة والقيادة.

(٥٣) تحمل "بغداد" العديد من الأسماء الأخرى مثل "برج الأولياء"، حيث إن "الشيخ عبد القادر الجيلاني" وغيره من كبار الأولياء قد عاشوا في هذه المدينة، التى تسمى أيضًا "دار الخلافة"؛ حيث كانت مقرًا للخلافة العباسية، ويعتبر "فتح بغداد" من الأحداث التي تحمل قيمة معنوية كبيرة في التاريخ العثماني. (ضيا نور، المصدر السابق، ص ٢٧٥).

إن شَعرةً من شارِبِكم المُبارَك أغلى عندي...

أثناء الحملةِ التي قادها "السلطان سليمان" للسيطرة على بغدادَ، لم تَتَوانَ "السلطانة خُرَّم" في إرسال الخطاباتِ إليه؛ حيث كانت حريصةً في هذه الخطابات على بثِّ ما كانت تُحِسُّ به من حبٍّ صادقٍ، ومشاعرَ جيَّاشةٍ تجاهَ السلطان.

ونجدها تبدأ إحدى الخطابات التي أرسلتها إلى السلطان سليمان بالجملة التالية:

"بعد أن أُعَفِّرَ وجهي في التراب، وبعد أن أُقَبِّلَ الأرضَ التي تحت قَدَمَيكَ أشعُرُ بالسعادة...".

ونراها قد أخذت تشدو بالكلمات التالية مُعَبِّرَةً بها عن العشقِ وألمِ الفراق:

"سلطاني يا شمسَ الدولةِ، ورأسَ مالِ سَعَادتي!

إذا أردت أن تعرفَ حالي من بعدك.. فإن قلبي قد احترقَ، وكبدي أصبحَ كالجمرةِ الملتَهِبَةِ من الشوق، وصار صدري خرابًا، وأما عينايَ فهما مليئتان بالدموع، لم أَعُدْ أعرِف ليلي من نهاري، وأصبحتُ غارقةً في بحرِ الحسرةِ، مبتلاةً بحبّكم، حتى صرتُ مسكينةً وأشدَّ سوءًا من حال "فرحات"و"المجنون".

ثم أَخَذَتْ تكمل ما سطرتْه بالعبارات التالية:

"كَمْ طالَ الأَمَدُ وأنا بعيدةٌ عن سلطاني، وآهاتي ونحيبي جعلاني مثلَ البلبلِ الصدّاح، وهذا الألَمُ كلُّهُ يامولاي سبَبُهُ بعدُكُمْ عنّي وفِراقُكُم لي، حتى إنني من فَرْطِ ألَمِي أصبحتُ لا أتمنّى أن يبتلي الله أحدًا بمثلِ ما ابتلاني به، حتى ولو كان من عبادِهِ الكافرين".

ونجد "السلطانة خُرَّم" في جزءٍ آخرَ من الخطاب تتألّم قائلةً:

"لِعَدَمِ ورود الأخبار عنكم منذ شهرٍ ونصف، فالله يعلمُ كيفَ أصبحتُ في كَمَدٍ مريرٍ، لقد صِرتُ أبكي ليلًا ونهارًا، وأصبحت زاهدةً في الدنيا ومتاعها، وضاقت الدنيا في عيوني بما رَحُبَتْ".

وبينما أَبْكِي ولا أدري ماذا أفعل، وأتَلَفَّتُ حولي بعيونٍ مليئةٍ بالدموع، وصلَتْني والحمدُ لله أخبارٌ مُبشِّرة وسارَّة عن الفتحِ وأمورٍ أخرى، لقد أحيَتْنِي تلك الأخبارُ وردَّتْ إليَّ روحي بعد أن كنتُ ميتَةً، فصرت -بفضلِ اللهِ ورحمتِهِ- أرى كلَّ شيءٍ من حولي يَفيضُ نورًا وبَرِيقًا، بعد أن كنتُ أرى الكونَ كلَّه غارقًا في بحار الظلْمةِ والظلامِ ... (٥٤)".

وفي إحدى مقاطع رسالتها تردُّ على السلطان بالمدح بعد أن أمرَ بإرسالِ خمسةِ آلاف عملةٍ ذهبيةٍ(٥٥) إليها، فتقول:

"سلطاني لماذا أتعبتَ نفسَك؟ إن شَعرةً مِن شارِبِكم المُبارَك أغلى عندي من خمسةِ آلاف عملة ذهبية، بل أغلى عندي من مائةِ ألفِ عملة ذهبيَّةٍ...(٥٦).

إن "السلطانة خُرَّم" تقول في خطابها: إنها كانت تنتظر أن يُرسِلَ إليها السلطانُ بالكثير من الخطابات، كذلك نجدُها في الوقتِ نفسِهِ لا تجدُ ما يمنعُها من أن تقُصَّ على السلطان ما كان يدورُ في القصرِ من إشاعاتٍ حال غيابِهِ فتقول:

"إنني أتضرّعُ إليكم وأرجوكم أن تُرسلوا ليَ الكثيرَ من الخطابات؛ لأنني -والله يعلم أني لا أكذبُ- إذا لم يأتِنِي ساعي

(٥٤) أُولُوجَايْ، رسائل العشق للسلاطين العثمانيين، إسطنبول – ٢٠٠١م، ص ٥٣.

(٥٥) هذه العملة التي تسمى "فلوري" تم استعمالها أول الأمر في دوقية "فينيسيا (*Floransa*)"، ثم أصبحت مستخدمةً بعد ذلك في أوروبا وفي الدولة العثمانية، وهي عبارة عن عملة ذهبية عليها رسم لزهرة الزنبق.

(٥٦) أُولُوجَايْ، رسائل العشق للسلاطين العثمانيين، إسطنبول – ٢٠٠١م، ص ٥٤.

البريد بخطابٍ منكم لأسبوعٍ أو لأسبوعين، فإن الناسَ يُكثِرون من القيلِ والقال، وينشرون الإشاعات المختلَقَةِ... (٥٧)".

* * *

وتبدأ "السلطانة خُرَّم" خطابها الثاني الذي أرسلَتْه إلى "السلطان سليمان" بالأسطر التالية:

"سلطاني الحبيب، بعد أن أُعَفِّرَ وجهي المتواضع بتراب قدميك المُبَجَّل..."

وتستمر في كلامها قائلة:

"...أقسم بالله ياروحي! لم يعُدْ ليلي ليلًا ولم يعد نهاري نهارًا، بعد أن صِرتُ بعيدةً ومحرومةً من وصالك، فماذا تتوقع أن يكونَ حالي وأنا بعيدةٌ عنك؟ إنني أقسمُ مرارًا وتكرارًا، أنني أحترق ليلًا ونهارًا من نار الفراقِ، فمَنْ عساه يا تُرَى يعلم بحالي سوى الحقّ ﷻ... ".

ولا تنسى "السلطانة خُرَّم" أن تُزَيِّنَ رسالتها بشيءٍ من الشعر، تنثرهُ بين سطور الرسالة:

"عجبًا! أيكون من نصيبي أن أراك مرة ثانية في هذه الدنيا؟
أتمنى أن يمنحني الباري فرصةً واحدةً كي أُعَفِّرَ وجهي عند أقدامك...
كم هي مؤلمةٌ وصعبةٌ مرارةُ الفراق والبعد عن السلطان
إن نيران تلك الفرقة قد تمكنت مِنّي، فاشتعلت بي وأحرقتني"(٥٨)

(٥٧) مع الأسف لم يتَسَنَّ حتى الآن العثور في سجلات الأرشيف على تلك الخطابات التي كتبها "سليمان القانوني" إلى "خُرَّم".

(٥٨) أُولُوجَايْ، رسائل العشق للسلاطين العثمانيين، إسطنبول – ٢٠٠١م، ص ٥٧-٥٨.

obeikandl.com

مقتل "إبراهيم باشا"

بعد أن انتهت "حملة العراق" تحرَّكَ الجيشُ السلطاني الذي يقوده "سليمان العظيم" من مدينة "تبريز" بتاريخ الثالث والعشرين من أيلول/سبتمبر من عام (١٥٣٥م)، متوجّهًا إلى مَقَرّ الخلافة في إسطنبول بعد أن مَرَّ على "حلب" و"أضنه (*Adana*)" و"أسكي شهير (*Eskişehir*)"، وبحلولِ الأسبوعِ الأوّلِ من شهر تشرين الأول/أكتوبر وصل السلطان على رأس جيشه إلى الآسِتَانَة (أي: إسطنبول)، حيث استُقبِلَ في جوٍّ احتفاليٍّ ومراسمَ عظيمةٍ بعد رحلةٍ استمرّتْ عدّةَ أشهرٍ.

ولكن بعد مرورِ شهرين فقط على وصولِ "السلطان سليمان" مُظَفَّرًا إلى عاصمةِ دولتِهِ، حدث زلزالٌ سياسيٌّ داخلَ الدولة العثمانيّة حيث وقع خبرٌ أليمٌ كالصاعقةِ على أهل إسطنبول.

لقد قُتِلَ الوزيرُ الأعظم "إبراهيم باشا"، الذي كان معروفًا بلقب "مقبول" قُتِلَ مخنوقًا، لقد قُتِلَ الوزيرُ الأعظم الذي زُفَّ كعريسٍ إلى القصر ليتزوّجَ السلطانة "خديجة" شقيقةَ السلطان، وجاء مقتلُه بعد أن قضى قُرابةَ ثلاثةَ عَشَرَ عامًا يشغل وظيفةَ الصدر الأعظم في الدولة العليّة العثمانيّةِ، استطاع خِلالَها بإمكانياته العديدةِ أن يحظى بحبّ السلطان، وأن يترقّى ليصلَ إلى رتبةِ القائدِ العامّ للأساطيلِ والجيوشِ العثمانيّةِ، مُزوَّدًا بصلاحياتٍ واسعةٍ، وحائزًا لقب "سر عسكر[٥٩] (*Serasker*)"[٦٠].

(٥٩) سر عسكر: اصطلاح عثماني يشابه في عصرنا وزير الدفاع، أو قائد الجيش والقوات المسلحة. (المترجم)

(٦٠) لقد كتب "بوسبيك (*Busbecq*)" سفير "شارل الخامس" حاكم الإمبراطورية الرومانية المقدسة في إسطنبول في تلك الفترة ما يلي: "لا يوجد شك في أن عاصمة الدولة العثمانية وكل الولايات التي بلغتها تلك الحادثة أصبح شُغْلُها الشاغل هو مسألة خنق "إبرهيم باشا" في القصر بِناءً على فرمان السلطان، لقد كانت تلك حادثة غير متوقعة... إنني في غاية الدهشة والذهول... " (أُولُوجَايْ،" بعض الوثائق والملحوظات المتعلقة بالسلطان "سليمان القانوني" وعائلته" كتاب "هدية القانوني"، أنقرة – ١٩٧٠م، ص ٢٣٥).

وكثيـرًا ما كان السـلطانُ، سـواء في إسـطنبول أم في أثنـاء الحملات الحربية، يُشارِك صديقه العزيز الصدر الأعظم في المأكَل والمجلِس، حتى إنـه كان ينـزلُ ضيفًـا عليه فـي القصرِ عندمـا كانت تطولُ بهم مسـامراتُ الليل، ولهذا فقد خُصِّصَ لـ"إبراهيم باشا" جناحًا مميزًا في القصر، لقد كانا صديقَين حميمَين لا يفترقان عن بعضهما ليل نهار.

وفـي اليـوم الثاني والعشـرين مـن رمضان دُعِـيَ "إبراهيم باشـا" إلى القصر -مثلما كان يحدثُ في كثيرٍ من الأحيان- حيث تناولَ الإفطار مـع السلطان وتجاذبا أطراف الحديث حتى منتصف الليل.

لقـد اتخـذ "القانوني" قرارَه في تلـك الليلة بألَّا يُخبِر صديقه بشـيء، ومـع تأخُّر الوقت استأذن "إبراهيم باشا" في التوجُّه إلى غرفته التي كانت ملاصقةً لغرفة السلطان، ثم استغرق في نومٍ عميقٍ دونَ أن يدركَ ما سيَحِلُّ به، وبينما كان "إبراهيم باشا" يبيتُ ليلَتَهُ في جناحٍ فاخرِ الأثاثِ، وقد أخذ خيالُـه يطوفُ فـي عالمٍ من الرُّؤَى والأحلام، إذا بـه يُقتَلُ مخنوقًا على يد الجلاد "علي" وأعوانه، بعد أن تَلَقَّوا الأمر السلطانيّ بقتله في السادس من آذار/مارس من عام (١٥٣٦م)[٦١].

أَمْسَى كُلُّ مَنْ بالقصر، وكذلك العلماءُ والوزراءُ، في حَيرةٍ من أمرهم، فلم يكن أيُّ شـخصٍ يعتقدُ أو يَظُنُّ أنّ السـلطانَ قد يتَّخِذُ قرارًا مِثلَ هذا، وجَرَت الشـائعات على ألسـنةِ الشـعبِ، لكنّ السـببَ الحقيقيَّ وراءَ هذه الواقعةِ لم يُعْرَفْ بعدُ إلى الآن.

إن السـببَ وراءَ هذه الحادثة الغريبةِ التي وَقَعَتْ قبل أربعمائة وثمانية وسـبعين عامًـا في القصر السـلطانيّ، لـم يُعرفْ حتى الآن بشـكلٍ مفصلٍ

(٦١) كان "مقبول إبراهيم باشا" في سن الواحد والأربعين عندما تم قتلُه.

أو كاملٍ، وحتى يومِنا هذا لا يزال هناك ستارٌ من الأسرار التي تُغلِفُ هذا الحادث.

إن المؤرّخينَ الغربيّين والمحليّين لا يزالون يَدَّعُون أن "السلطانة خُرَّم" لها دور ضالِعٌ في تلك الحادثة الأليمة، ولم ينفكُّوا عن توجيهِ أصابعِ الاتّهام إليها بشكلٍ جائرٍ وظالمٍ، حتى لقد صارت "السلطانة خُرَّم" تبدو لهم وكأنها "المسؤول الوحيد" عن تلك الحادثة، ولم يكتفوا بذلك فحسبْ، بل صاروا يُلصِقونَ بها التُّهَمَ عند وقوعِ أيِّ حادثةٍ سلبيَّةٍ ضمنَ تلك الحِقبةِ الزمنيّةِ التي عاشت فيها.

لقد رَقّى السلطانُ القانوني إبراهيمَ باشا رجلَ الدولةِ الخارقَ الذكاءِ إلى أعلى منصبٍ في الدولة، بينما كان في أوّل أمرِهِ عبدًا عاديًا، إلا أنه -أي السلطان- وقَّعَ على فرمانِ إعدامِهِ بعدَ ثلاثةَ عَشَرَ عامًا، ولم يُصرِّحْ بأيِّ شيءٍ عن قتلِهِ، ولم يَرْغَبْ في الحديثِ عن هذا الموضوعِ قطّ[٦٢].

وفي الوقت نفسه نجد أن أغلب المصادر العثمانية لم تتناول هذه المسألة على الإطلاق، بينما نَجِد -على سبيل المثال- المؤرخ "لطفي باشا"، وبالرغم من عَمَلِه صدرًا أعظم للقانوني وعِلْمِهِ -في أغلب الظن- حقيقةَ هذا الأمر، لكنه يكتفي في حديثه عن هذا الموضوعِ بالقول:

"قَتَلَ السلطانُ وزيرَه "إبراهيم باشا" حين قَدِمَ إلى إسطنبول".

ونجد أن الكتابات التي تناولت مقتل "إبراهيم باشا" بِمُجْمَلِهَا اجتهاداتٌ فرديَّةٌ، أو أفكارٌ شخصيّة أو ملاحظاتٌ لمؤرخين، لا أكثر من

(٦٢) وبينما كان "سليمان القانوني" في طريقه إلى "سرز" عائدًا من حملة "كورفو" مع قاضي عسكر الأناضول "محيى الدين" وقاضي عسكر (الجانب الأوروبي) "قدري"، فإذا بهم يسألونه سبب قتل "إبراهيم باشا" الذي ظل سِرًّا، فما كان من السلطان الذي تضايق من سؤالهم وتقصِّيهم عن هذا الأمر إلا أن أَمَرَ بعزلهما، وأمر بتولية "أبي السعود" قاضي إسطنبول ليحل محل قاضي عسكر (الجانب الأوروبي) "قدري"، وكذلك أمر بتولية "تشيفيزاده" قاضي مصر ليحل مَحَلّ قاضي عسكر الأناضول "محيى الدين" (أُوزُونْ جَارْشِيلِي، المصدر الصابق، المجلد الثاني، ص ٣٥٩).

ذلك أما الأخطاءُ التي تُنْسَبُ إلى "إبراهيم باشا"، والعواملُ التي أَفْضَتَ به إلى هذه النهايةِ المأساوية، فيمكن حصرُها في إطار الأسبابِ التاليةِ:

- أثناء الحملة العسكرية على العراق وُجِّهَتْ إلى "إبراهيم باشا" تُهمةُ جَرِّ القوات التي كانت تحتَ قيادتِه إلى الهلاك في أرضٍ قاحلةٍ وصحراويّةٍ، وذلك أثناءَ تَعَقُّبِهِ الجيشَ الإيرانيَّ، بعد أن سيطر على مدينة "تبريز".
- هذا بالإضافة إلى سُوءِ استعمال السلطات الواسعة التي منحها إياه السلطان(٦٣).
- وضُلُوعه في إعدام الباش دفتردار "إسكندر شلبي" في (آذار/مارس ١٥٣٥م) (٦٤).

(٦٣) في أثناء الحملة العسكرية على العراق أخذ "أولاما خان (*Olama Han*)" يُحَرِّض "إبراهيم باشا" على أن يضاف لقب السلطان إلى جوار لقب "سر عسكر" الذي كان الباشا يحمله، حيث توجه بالسؤال التالي إلى "إبراهيم باشا" قائلًا: "هل هو كثير على الوزير الأعظم للسلطان العثماني الذي ملك الشرق والغرب أن يحمل لقب "سلطان" في حين أن البكوات والخانات يحملون لقب شاه العجم ؟".

وبعد ذلك أصبح يستعمل تعبير "سر عسكر سلطان" في الفرمانات التي يصدرها الباشا، كما أصبح التعبير نفسه يستخدم في الأوامر التي يتم الإعلان عنها وإرسالها إلى الجيش بواسطة الرُّسُل وناقلي الأوامر. وقد استغل منافِسو الباشا هذا الأمرَ وادَّعَوْا أنه يُعِدُّ مُخَطَّطًا سِرِيًّا للاستيلاء على السلطة، واستطاعوا أن يثيروا قلق السلطان "القانوني" فيما يتعلق بهذا الأمر. (أُوزُونْ جَارْشِيلِي، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٣٥٧).

(٦٤) كان إبراهيم باشا الذي يرسل تكليفاته وأوامره وهو في إيران أثناء حملة العراق يستخدم لقب "سر عسكر السلطان"؛ حيث إنه من الثابت تاريخيًّا أن الباشا قد استخدم هذا التركيب الإضافي، لكن الرسول الذي ينقل الأوامر كان أثناء النداء بما لديه من أخبار يقول:

"هذا هو أمر "سر عسكر" السلطان".

عندها قام "إسكندر شلبي" الذي كان يحمل منصب "كتخدا سر عسكر" باستدعاء هذا الرسول ومنعه من أن يصيح على هذا النحو قائلًا له: "لا تَقُلْ "سَرْ عَسْكر السلطان"، ولكن قُلْ: "هذا أمر حضرة السَّرْدَارْ".

ومع بلوغ هذا الأمر إلى "إبراهيم باشا" زادت مشاعر الكراهية والنفور بين الرجلين، كذلك يروى أن "الدفتردار" قد حَرَّضَ "سَرْ عَسْكَرْ" على فتح "تبريز"، وذلك سعيًا منه أن يرى إخفاق الباشا، وعندما جاء القانوني إلى "تبريز" أخذ يوجه النقد واللوم إلى "إبراهيم باشا"؛ بسبب قيامه بتعريض الجيش إلى الخطر، وإبقائه في أرض العدو ووسط مدنه في فصل الشتاء، وفي حملة عسكرية على هذا القدر كبير من الأهمية، فما كان من "إبراهيم باشا" إلا ان أجاب قائلًا:

"وهل كان بيدي شيء؟ لقد جَمَعْتُمْ الأمر والحل والعقد بيد عبدكم "إسكندر شلبي"؛ وهكذا فقد حَمَّلَ "إسكندر شلبي" الذي اتَّضَحَتْ براءتُه فيما بعد كُلَّ المسؤولية، قائلًا: لقد تم التحرك بناءً على قرار "الدفتردار" الذي أَمَرْتُمُوني أنا عبدكم بتنفيذ نَصيحته، وقد أضاف "إبراهيم باشا"، بينما كان يغادر حضرة السلطان عبارة: "إنه ذو الخبرة"، بعد ذلك تَمَّ أَوَّلًا

- كما كان من ضمن التهَم التي نُسِبَتْ إلى "إبراهيم باشا" اتهامه بعدم مراعاة الأحكام الشرعيّةِ.
- وعدم الالتزامِ بالتعاليمِ الإسلاميَّةِ إلى جانب غيرها من الأمور...[٦٥].

لقد مُنِحَ "إبراهيم باشا" الكثير من الألقاب، واستطاع في فترة وجيزة أن يَصِلَ إلى أعلى المراتب، لكن بالرغم مما حقّقه من نجاح فقد كانت لديه ميول للصعلكة وحياة اللهو والخلاعة، وفي الوقت الذي كان فيه أهالي إسطنبول قد اعتادوا على رؤية السلطانِ في أرفعِ مقامٍ وأعلى مرتبةٍ، أخذت تبدو على "إبراهيم باشا" من خلال تصرّفاتِه وأحوالِه سماتُ التكبّرِ وادّعاءِ العَظَمَةِ؛ ممّا كان سببًا في ظهورِ العديدِ من الشائعات، وقد أدّتْ هذه التصرفاتُ من قِبَل "إبراهيم باشا" إلى مساعدة خصومه في نسج القصصِ والأقاويل عنه وبثّها ونشرها، حيث كان لرجال "إسكندر شلبي" الأَكْفَاء الذين انتقلوا إلى القصر العثمانيّ دورٌ كبيرٌ في هذا الصدَدِ[٦٦].

عزل "إسكندر باشا" من مَنْصِبِهِ، ثم تَلَا ذلك الحكم عليه بالإعدام شنقًا، وعلى الرغم من أن السلطان كان متأثرًا لما وقع إلا أنه لم يعرب عن شيء للد"سر عسكر"، لكن هذه الواقعة كانت سببًا في ظهور أولى الأمور التي ستكون في غير صالح "إبراهيم باشا" لدى السلطان، وقد قامت دراسات بعد ذلك أظهرتْ براءة "إسكندر شلبي" في هذا الموضوع... (أُوزُونْ جَارْشِيلِي، المصدر السابق، المجلد الثاني، ص ٣٥٣-٣٥٧).

(٦٥) في عام (١٥٢٦م) وخلال العشرة أيام التي قضاها "سليمان القانوني" في "بودين" نجده قد أرسل سفينة إلى إسطنبول عبر نهر "تونا" حيث شحن على هذه السفينة خزينة ملك المجر ومعها شمعدانين من البرونز وثلاث تماثيل برونزية، بالإضافة إلى مكتبة كبيرة تخص الملك "ماتهياس كورفين"، وقد قام "إبرهيم باشا" بوضع هذه التماثيل الثلاثة، التي كانت ترمز لكل من "هرقل" و"أبوللو" و"ديانا" على قواعد رخامية وجعلها أمام قصره الذي كان يقع في ميدان "آت" (أي: الحصان) الذي أصبح الآن يعرف باسم "ميدان السلطان أحمد"؛ مما أدى إلى انتشار بعض الشائعات بين الناس، لدرجة أنه يروى أن أحد الشعراء وهو الشاعر المسمى "طرابزونللو فيجانى رمضان" قد ألف شعرا يسخر فيه من الباشا حيث أنشد البيت التالي:

"جاء خليل في البداية وكسر الأصنام،

والآن فقد جئت يا خليل وجعلت الناس عبدة أصنام".

ففي هذا البيت نجد اثنان يحملان اسم "خليل"، الأول هو نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام، أما الثاني فهو الصدر الأعظم "إبرهيم باشا "، وقد تسبب "إبرهيم باشا" من خلال هذا العمل في إيذاء المشاعر الدينية لدى الجماهير. (دَانِشْمَنْد، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ١٦٢).

(٦٦) كان "إسكندر شلبي" يربي العبيد الذين تحت إمرته ويعلمهم على خير وجه. ويروى أنه قد تربع قى مناصب الصدر العظم والوزارة ٧ من هؤلاء العبيد، وكان "صوكوللو" واحدا من هؤلاء. ويقال أنه بعد مصرع "إسكندر شلبي" وانتقال هؤلاء العبيد إلى الخدمة لدى السلطان فقد كان ذلك بداية المصيبة التي ستحل بال"سر عسكر" حيث سيعمل هؤلاء العبيد على إيضاح كيف إن سيدهم كان بريء وبلا ذنب فيما حدث..

وها هو المؤرخ "صولاك زاده" يحكي لنا عن هذه الواقعةِ:

"لقد عزل إبراهيم باشا الكثيرين أثناءَ حملةِ بغداد بدون مبرّر، كما كان ينفقُ أموالًا طائلةً؛ كي يكسبَ قلوبَ مجموعةٍ من السفاحين وقد ثبت من خلال الدفاتر والسجلّات أنه أسرفَ في إنفاق المال -في تلك الفترة التي كان فيها موضعَ ثقةِ السلطان- حتى بلغت ثمانين ألفَ قِطعةٍ ذهبية، حتّى إنني ذكرتُ هذا ذاتَ مرّةٍ أمام الصدر الأعظم "أياس باشا" (الذي تولى المنصب بعد مقتل إبراهيم باشا) وقلت له:

"إن إنفاقَ إبراهيم باشا هذه الألوف المؤلّفة من الذهب على السفهاء دليلٌ على تجرُّئِهِ على السلطنةِ وتعدّيهِ عليها، وهذا الأمر قد ثَبَتَ لدينا بالدليل المؤكّد والقاطع "[٦٧].

* * *

لقد رأى "القانوني" أنه ليس ثَمَّةَ حَلٌّ أمامه سوى أن يضحّي ويتخلَّصَ من "إبراهيم باشا"، وذلك في سبيل وضع حدٍّ للشكاوى والإشاعات التي كانت تدورُ على ألسنةِ الناس.

فعندما قام السلطان بتقصّي الحقائق عما أُثِيرَ حول "إبراهيم باشا"، وقيامه بعد ذلك بتقييم ما بلغه من معلومات، وجدَ أنه إضافةً إلى ما ورد بحقّه من شكاوى، وإلى جانب كراهيةِ الشعبِ له بسبب التصرفاتِ والسلوكيات الخاطِئَةِ التي كان يُمارِسها، فقد نُسِبت إليه أيضًا تُهَمٌ تتعلّقُ بالتجرّؤِ على مقام السلطنةِ[٦٨].

فلا بدّ أن السلطان العادل "سليمان القانوني" كانت لديه قناعةٌ مؤكَّدة وأدِلَّةٌ دامِغة وكافية ومقنعة لإصدار مثل هذا القرارِ الصعبِ.

(٦٧) هَمْدَمِي شَلَبِي، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ١٩٠.

(٦٨) أَكْسُونْ، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٧٩.

obeikandl.com

ما ذنب "خُرَّم"؟

يذكر الأستاذ الدكتور "جُوكْبِيلْجِينْ (*Gökbilgin*)" معتمدًا في كلامه على "همر (*Hammer*)" و"جيروم (*Jerome Maurand*)" و"جان شينسو (*Jean Chesneau*)" في كتابه "رحلة السيد أرامون (*LeVoyage de Monsieur d'Aramon*)" :

> "إن من المُؤكّدِ أن السلطانة "خرم" استخدمت نفوذَها وتأثيرَها الكبير على السلطان من أجل القضاء على "إبراهيم باشا" تمامًا وإزاحته وإعدامه [٦٩]".

وبِنَاءً على ما يذكره "هامر": "فقد كانت "خُرَّم" ترى في الحملة العسكرية على إيران (١٥٤٨-١٥٤٩م) سببًا من شأنه أن يُبرِزَ الكفاءَة العسكريّة لدى صهرِها وزوج ابنتِها "رستم باشا"، ويُمَكِّن ابنها "سليم" -الذي كان وقتها حاكمًا على أدرنة- من أن يَخْلُفَ والدَه[٧٠]".

* * *

السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: ما السبب الذي يجعل المؤرّخين الغربيّين ومَنْ حَذَا حَذْوَهم وسارَ على نَهْجِهِم من المؤرخين الأتراك، يُحمّلون "السلطانة خُرَّم" مسؤوليةَ موتِ "إبراهيم باشا"؟

في ذلك الوقت كان الأميرُ مصطفى ابنُ "السلطان سليمان" و"السلطانة جلبهار (*Gülbahar*)" هوَ وَرِيثَ العرشِ العثمانيّ، أي: إنه في حالِ وفاةِ السلطان يصير مصطفى هو الشخصُ الذي سيعتلي ويجلس على العرش، لقد بدأ مصطفى من خلال شخصيّتِهِ المُمَيّزَةِ يحظى بحبّ الشعبِ،

(٦٩) جُوكْبِيلْجِينْ، المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٥٩٤.

(٧٠) جُوكْبِيلْجِينْ، المصدر السابق، الجزء الخامس، ص ٥٩٥.

obeikandl.com

ولا سيما الجيش، وبذلك تَفَوَّقَ على الأمراء أبناءِ "السلطانة خُرَّم"، وفي الواقع لقد كانت "خَاصَكِي" تتمنى أن يكون السلطانُ القادمُ هو ابنها "الأمير بيازيد"[٧١].

ولكن بما أن "إبراهيم باشا" كان في صفِّ الأمير مصطفى، فقد أخذت "خُرَّم" تُخطِّطُ من أجل إزاحةِ الوزيرِ الأعظمِ عن الساحةِ، فكانت تنتهزُ أيّةَ فرصةٍ من أجل تأليبِ السلطانِ على "إبراهيم باشا"، وقد نجحت أخيرًا في إغواءِ السلطان وإقناعه؛ حيث كانت توسوسُ إليه بأن "إبراهيم باشا" يطمعُ في العرش العثمانيّ، وأنه يسعى للانقضاضِ على الحكمِ.

إن المؤرّخين الغربيّين أو من تأثّرَ بهم يسوقون هذه الادّعاءات ويُدافعون عنها، إلا أننا نجدُ أنهم لم يتمكّنوا من أن يقدّموا أيّةَ وثيقةٍ تُؤَكِّدُ أن مقتل "إبراهيم باشا" كان نتيجةً للإشاعات والوشايات التي كانت تبُثُّها "خُرَّم" في أذن السلطان، إنهم لا يقدمون لنا سوى مجموعةٍ من المعلومات التي تستندُ إلى حزمةٍ من الحوادث المشكوكِ في صِحّتِها، وهذه الادّعاءاتُ في نهاية الأمر تفتقرُ إلى الدليل والبرهان الذي يمكن أن يُثْبِتَها.

البحرُ الأحمرُ يصبحُ بحيرةً تركيّةً

لقد أصبح وقف "السلطانة خُرَّم" في وقتٍ وجيزٍ من أشهرِ المراكزِ الاجتماعيَّةِ والتعليميَّةِ في إسطنبول، وتوسَّعَ ليضُمَّ دارًا لإطعام المساكين ومدرسةً للصبيان ومدرسة دينيَّةً تمَّ إنشاؤُها عام (١٥٤٠م)، بعد أن كان في صورةِ جامعٍ صغيرٍ ذي قُبَّةٍ واحدةٍ في المنطقةِ التي أُطْلِقَ عليها فيما بعد اسم "خَاصَكِي".

(٧١) من تصاريف القدر العجيبة أن هذه الرغبة القوية التي كانت لدى "السلطانة خُرَّم" لم تتحقق؛ حيث إن عرش الدولة العثمانية لم ينتقل إلى "بيازيد"؛ لدخول الأمير سيء الحظ في حرب مع أخيه "سليم"، وبعدها لجأ إلى إيران (قزوين)، وقد تم قتله بأمر من والده في (٦ تشرين الأول/أكتوبر من عام ١٥٦١م).

فـي الوقتِ نفسِـهِ كان الجيـشُ العثمانيُّ قد خرجَ فـي ثلاثِ حملاتٍ عسـكريّةٍ مختلفةٍ في البرّ والبحرِ، ففي الوقتِ الذي بسـطَ فيه قبطانُ البحرِ "باربـاروس (*Barbaros*) خير الدين باشـا" أَشْـرِعةَ سُـفُنِهِ مُتَّجِهًا في حملةٍ بحريَّةٍ للسيطرةِ على الجُزُرِ، كان والي مصر "خادم سليمان باشا" قد خرجَ هو الآخُر في حملةٍ مُتَّجهًا إلى الهند، وكان "السلطان سليمان" أيضًا يقودُ بنفسهِ الجيشَ السلطانيَّ متوجّهًا إلى "بوغدان (*Boğdan*)"، ويشير الانتشارُ للجيـشِ العثمانيّ على مسـافاتٍ واسـعةٍ، وتكثيفُ الحمـلات إلى مناطقَ متفرقـةٍ ومتباعدةٍ إلى القدرةِ العسـكريَّةِ والإداريَّـةِ والاقتصاديَّةِ التي كانت تتمتَّـعُ بها الدولة العثمانيَّةُ؛ حيث كان جيشُـها يخـوضُ معركةً -هجوميَّةً لا دفاعيَّة- على ثلاث محاورَ متفرقةٍ ومتباعدةٍ.

تحرك "بارباروس" في أيلول/سـبتمبر عام (١٥٣٨م) قاصدًا الأسطولَ الصليبيَّ الذي كان يتحرَّكُ حولَ أطرافِ جزيرةِ "كورفو (*Korfu*)"، واستطاع فـي مدَّةٍ قصيرةٍ ومن خلال مناوراتٍ بارعةٍ أن يُنْهِكَ الأسـطولَ الذي كان تحـت إمرةِ القبطان الشـهير "أندريا دوريـا (*Andrea Dorya*)"، فما كان من قبطانِ الصليبيّين الشـهيرِ إلا أن يُصدرَ أمرًا بالانسـحاب وهو في حالةٍ من اليـأس، أمـا "بارباروس" فقد قـرَّر أن يتركَه ولا يلاحقه، لكنـه في الوقتِ نفسِهِ أصدرَ أوامرَهُ بحرقِ السفنِ المعاديةِ، التي كانت لا تزال موجودةً في ساحةِ المعركةِ.

وفي تلك المعركةِ، اسـتمرَّت ألسـنةُ النيرانِ مشـتعلةً في بحرِ "بريفيزا (*Preveze*)" لساعات طويلة، حتى قُدِّرت أعداد السفنِ التي فقدها القبطان "دوريـا" فـي هـذه الحرب بمائةٍ وثمان وعشـرين سـفينة حربيَّـة كبيرة من نوعي "قالْيُونْ"(٧٢) و"كَرَاكَهْ"(٧٣)... مـع العلم بأنّ مجموعَ سـفنِ الأسـطولِ

(٧٢) المقصود هنا سفن حربية كبيرة سبقت عصر السفن البخارية، حيث كانت تتحرك بالشراع أو بالمجاديف وتحتوي الواحدة منها على عنبرين أو ثلاثة.

(٧٣) المقصود هنا أحد أنواع السفن الحربية الكبيرة، تصنع من الخشب وتحتوي على عنبرين.

البحـريّ العثمانـيّ لا يبلـغ مثلَ هذا العدد! إلا أن الأتراك لم يخسـروا في تلك المواجهةِ أيَّةَ سفينةٍ من سُفُنِهم!

وفي نفسِ الوقتِ الذي خرج فيه باربروس على رأسِ أسـطولِهِ، خرج أيضًا "خادم سـليمان باشـا" على رأسِ حملةٍ عسـكريّةٍ إلى اليمنِ والهندِ، وقـد تمكّـن من الفتحِ واسـتطاعَ أن يُحْرِزَ نجاحًا كبيـرًا ومُهِمًّا -مثل ذلك النجـاحِ الـذي حقَّقَه باربروس في البحر المتوسّـط- حتى تمكّنَ في نهايةِ الحملةِ أن يُحوّلَ البحرَ الأحمرَ إلى بحيرةٍ تابعةٍ للتاجِ العثمانيّ بعدَ إحكامِ السيطرةِ على اليمنِ وعدن، وازدادت بهذه الحملةِ سلطةُ ونفوذُ العثمانيّين وتولّدَت لديهم آمالٌ جديدةٌ في إمكانيّةِ الوصولِ إلى سواحلِ الحبشةِ .

كان السـلطان "سـليمان القانوني" قد تحرّك إلى "بوغدان" -مولدوفيا الآن- فاسـتطاع أن يفتحهـا ويحوّلهـا إلـى واحدة من الولايـات العثمانية المميزة.

أرجو من الحق تعالى أن...

في العشرين من حزيران/يونيو عام (١٥٤١م) خرج "السلطان سليمان" في حملةٍ جديدةٍ على النمسـا، وعندما وصـل إلى "فيليبه (*Filibe*)" أصدرَ أوامِـرَه إلـى "باربـاروس" بالتوجُّه لمسـاعدةِ الجزائرِ وفَـكِّ الحصار عنها، بعـد أن حاصَرهـا الأسـطولُ الإسـبانيُّ، وقد تمكَّنـت الجيـوشُ العثمانيّةُ بقيادةِ الوزيرين "محمد باشـا" و"خُسْـرَوْ باشا" من إلحاقِ الهزيمةِ بالجيشِ النمسـاويّ بقيادةِ "فون روجندورف (*VonRugendorf*)"، الذي كان يحاصرُ "بودين" قبل أن يصل جيش السلطان، وتمكنت القوّاتُ العثمانيَّةُ من إبادةِ قسمٍ كبيرٍ من الجيشِ النمساويّ... وعندما وصلت هذه الأنباء إلى مسامعِ السـلطان، كانـت هناك بشـرى أخرى قد وصلتـه أيضًا، وهي التـي تتعلَّقُ بتمكُّنِ الأسـطولِ الصغيرِ الذي كان تحتَ إمرةِ "قاسـم باشـا" من استعادةِ

السيطرةِ على "بشته (*Peşte*)" وذلك في الثاني والعشرين من آب/أغسطس عام (١٥٤١م)،[٧٤] وما أن وصل السلطانُ في وقتٍ قصيرٍ إلى أطراف "بودين"، حتى أصدرَ قرارًا سلطانيًّا تمّ بموجبِهِ مكافأةُ القادةِ العسكريينَ الذين أَبْلَوا بلاءً حسنًا في الحرب.

* * *

أما "السلطانة خُرَّم" فمن جانبها، لم تتركِ السلطانَ وحيدًا خلال تلك الفترة القصيرةِ التي افترقا فيها، فقد عَبَّرَتْ عن شغفِها بهِ وحبِّها له من خلال الخطابات الحَميميَّة التي أرسلتها إليه، وهكذا استطاعت أن تكسبَ قلبَ السلطان وحبَّهُ.

وقد بدأت السلطانة "خَاصَكِي" خطابَها الحميمَ إلى السلطان قائلةً: "يا سلطاني الحبيب"، ثم واصلت حديثها بكلماتٍ تُعَبِّرُ عن مدى اشتياقِها وتَأَلُّمِها الشديدِ بسبب البِعاد.

وتناجي "خُرَّم" سُلطانَها الحبيبَ مخبرةً إيّاهُ عن حالِها قائلةً:

"لو سألتم عن حالِ جاريتكم المحترقةِ بنارِ بِعَادِكم، فإنها بخيرٍ بفضلِ عنايةِ الحقِّ ﷻ... "

"يا حبيبي وسلطاني ويا سعادتي!

تُرى كيف هو مزاجكم المبارك؟

يا ليتكم تتلطَّفون وتتكرَّمون فتُعلِمونني به بين الحين والآخر، فأنا جاريَتكم المسكينة، الله يعلمُ مقدارَ النارِ التي تُحرقُني لِبُعدكم، وكم قد تحطم قلبي واحترق من لهيب فراقكم، إنني أرجو وأتضرَّعُ إلى الحقِّ تعالى ليل نهار أن يكون لي نصيبٌ فأُعفِّر وجهي بترابِ قدمِكم، وأن أرى جمالكم المبارك مرّةً ثانيةً".

(٧٤) هذا الانتصار عرف باسم "نصر إيستابور"، وكلمة "إيستابور" معناها "الجيش السلطاني القوي".

لم يترك السلطانُ محبوبَتَه "خُرَّم" أمَّ أولادِهِ من غيرِ أن يردَّ على هذه المشاعرِ المُلتهبةِ، فقد أظهرَ بشكلٍ جليٍّ مَحَبَّتَه لها، من خلال أبياتٍ مملوءةٍ بالمشاعر الجيَّاشةِ، وقد أطلق على نفسه خلالَ القصيدةِ اسمًا مستعارًا وهو"مُحِبّي"، وبإنصافٍ، فإن هذه القصيدةَ تُعتبرُ واحدةً من أقوى الأدلَّةِ على مدى حبِّهِ وعِشْقِهِ للسيدة "خرم" حيث يقول فيها:

يا مَنْ أُشارِكُه حياتي، يا حبيبتي، يا قَمَري المُضِيء
يا أنيستي يا مستودعَ أسراري، إنكِ سلطانة ملكات الجمال!
يا حياتي وعمري وحالي، وشرابَ كوثري وجنةَ عدني،
يا ربيعي وبهجتي ونهاري، ومصدرَ سعادتي وفرحي!
يا حبيبتي يا وردتي المبتسمة، يا ضيائي، ونوري وشمعي،
يا ذات اللون البرتقالي، يا لهيبي واشتياقي، يا نورَ ليلي في البِعاد!
يا غُصْني وعَسَلي، يا من حفظَتْ نفسَهَا في غيابي،
إنكِ بمكانة العزيزِ لديّ، ومكانة يوسف كذلك، إنكِ كلّ ما أملك!
يا إسطنبولي يا "قَرَمَانِي"، يا كلَّ "بلدان العالم" ويا "بلاد الروم"،
يا بلاد "بدهشان" وبلاد "القبجاق"، يا "بغدادي" و"خرساني"!
يا شَعري المموج الملتوي، يا حاجبي المقوس، أنا مريض بتلك العيون الفاتنة،
إذا ما متُّ فدمي في رقبتِكِ، المَدَد منك يا حبيبتي الجميلة!
أنا عند بابك لأمدحكِ، سأظلُّ أمدحُك إلى الأبد،
قلبي مليء بالألم، وعيني مليئة بالدموع، أنا "مُحِبّي" وعاشق ولهان!

(لقد كان اسم "مُحِبّي" هو الاسم المستعارَ الذي يستخدمه "السلطان سليمان" في الأشعار التي كان ينظمُها[٧٥].

(٧٥) سلطان سليمان القانوني، " أشعار غزلية للسلطانة "خُرَّم" "، منشورات *COGİTO*، إسطنبول - ١٩٩٥م، العدد: ٤، ص ١١٣.

حدثٌ أليم: وفاة ولي العهد محمد

في عام (١٥٤٣م)، لم يكن قانون "الأكبريَّة"[٧٦]، قد طُبِّق بعدُ في الدولة العثمانيَّةِ؛ لذا فقد قام "السلطان سليمان" –وهو أبٌ لخمسةِ أبناء حينها[٧٧]– بتعيين ابنه الثاني الأمير محمد الذي كان يبلغ من العمر اثنين وعشرينَ عامًا وليًّا للعهد، وقام بإرساله إلى أقربِ ولايةٍ من إسطنبول، وهي ولاية "صاروخان (*Saruhan*)" (مانيسا/*Manisa*)[٧٨] ليكون حاكمًا عليها، لكنَّ الأميرَ محمدًا قد وافَتْهُ المنيَّةُ؛ نتيجةَ الإصابةِ بمرضٍ فجائيٍّ باغتَهُ في أواسطِ عام (١٥٤٣م)، وهكذا عاش "سليمان القانونيُّ" الذي بلغَ الثامنةَ والأربعينَ من عمرِهِ هو وزوجته "خُرَّم" أُولى وأكبرِ أحزانِ حياتِهما، وهما في رَيعَان سلطانهما، وبعدَ قدومِ نعشِ الأميرِ محمد إلى إسطنبول، دُفِنَ في المقبرة التي أَعَدَّها القانونيُّ خِصِّيصًا له، حيث زُيِّنت تلك المقبرة بِقِطَعٍ خزفيَّةٍ لا مثيلَ لها، تعودُ إلى القرن السادس عشر، وأصبح مكانُ ذلك الضريحِ في المنطقةِ التي عُرِفت فيما بعدُ باسم "شَهْزَادَه بَاشِي (*Şehzadebaşı*)"[٧٩].

(٧٦) كان هذا بمثابة مبدأ ينص على تعيين أكبر الأمراء سنًّا ليكون وريثًا لعرش السلطنة.

(٧٧) كان الأمير مصطفى يبلغ في ذلك الوقت الثامنة والعشرين من العمر، أما الأمير "محمد"، فكان يبلغ الثانية والعشرين، و"الأمير سليم" التاسعة عشر، والأمير "بيازيد" السابعة عشر، والأمير "جهانجير" الثانية عشر.

(٧٨) إن تعيين السلطان "سليمان القانوني" الأميرَ "محمد" وليًّا للعهد يتبين من توليته إياه حكم إحدى الولايات القريبة من عاصمة الدولة مثل "صاروخان"، والروايات التي تذكر أنه كان أحب أبنائه إليه، ووضع السلطان "القانوني" عرشا خشبيا صغيرا فوق ضريحه بعد وفاته. (دَانِشْمَنْد، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٢٤٤).

(٧٩) تم البدء في حزيران/يونيو من عام (١٥٤٣م) في بناء "مجمع شاهزاده" الذي أقيم تحت اسم الأمير "محمد بن السلطان "القانوني"، وقد تم في البداية تشييد الضريح، وفي الثالث والعشرين من أيار/مايو (١٥٤٤م)، تم وضع حجر الأساس للجامع الذي قال عنه المعماري "سِنَان": "أثري في عهد التلمَذَة"، حيث افتتح هذا الجامع للعبادة في آب/أغسطس من عام (١٥٤٨م)، وخلال الفترة التي استغرقها بناء الجامع، فقد شيدت كذلك عدة بنايات، شملت دار إطعام المساكين، ومدرسة للصبيان، ومشفى وخان للقوافل. (إسماعيل أورمان، "مجمع شاهزاده"، الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة التركية، إسطنبول – ٢٠١٠م، الجزء رقم ٣٨، ص ٤٨٣).

ثلاثٌ وخمسون رسالة أُرْسِلَتْ إلى ملك بولندا

في الفترة التي كان "سليمان القانوني" يجلس فيها على عرشِ الدولة العثمانيَّةِ، كان الملكُ "زيجموند الأول (*I. Zygmund*)" جالسًا على عرش بولندا منذ عام (١٥٠٦م)، وخلال فترةِ حكمِ "سليمان القانوني" التي استمرَّت من (١٥٢٠م) إلى عام (١٥٦٦م) سواء في عهدِ الملك "زيجموند الأول" أو في عهدِ ابنه "زيجموند أوغسط (*Zygmund August*)" الذي جلسَ على العرشِ من بعده في عام (١٥٤٨م)، فقد كانت هناك فترةُ سلامٍ طويلةُ الأجلِ بين الدولة العثمانيّةِ وبولندا، باستثناءِ بعضِ المناوشاتِ المحدودةِ التي كانت تقعُ على المناطِقِ الحدوديَّةِ، لقد كانت الصداقةُ المعقودةُ بين الدولتين ضرورةً اقتضَتْهَا المصالحُ السياسيّةُ لِكِلْتَا الدولتين، لا سيّما أنّ بولندا كانت تخشى من الروسِ ومن التتارِ، كما كانت الدولة العثمانيّةُ كذلك تتوجّسُ خِيفةً من أن تنضمَّ بولندا إلى ألمانيا؛ حيث إن تحالفَ هاتينِ الدولتينِ كان سيمثّلُ خطرًا كبيرًا ويزيدُ من قوَّةِ ألمانيا، وقد عملتِ الدولةُ العثمانيَّةُ للحيلولةِ دونَ وقوعِ ذلك على اتّباعِ سياسةِ التعايُشِ السِّلميّ مع بولندا؛ من أجل تحييدِ هذه الدولة. (٨٠)

وبعد أن امتدَّتْ اتفاقيَّةُ السلام بين كِلْتَا الدولتين لأعوام طويلةٍ، بدأت كلٌّ من الدولةِ العثمانيَّةِ وبولندا في عام (١٥٢٥م) في اتباعِ سياسةٍ مشتركةٍ وبَنَّاءةٍ للغايةِ، ففي الأرشيفِ الرئيسِ للوثائقِ القديمةِ الموجودةِ في "وارسو"(٨١) توجدُ النسخُ الأصليةُ من الرسائل المَمْهُورة بطُرَّة السلطان، التي أرسلها "سليمان القانوني" إلى ملك بولندا، حيث يبلغ مجموع هذه الرسائل ثلاثًا وخمسين رسالةً مُرسَلةً إلى الملك "زيجموند الأول" إلى

(٨٠) أُوجْتُومْ، المصدر السابق، ص ٧٠٨.

(٨١) ويسمى باللغة البولندية " *Archivum Glowne AKT Dawnych* "

جانب ثمانيةٍ وأربعين رسالةً مرسلةً إلى الملك "زيجموند أوغسط"، هذا بالإضافة إلى الخطابات التي أُرسِلت أيضًا إلى ملوك بولندا من قِبَل كلٍّ من الصدرِ الأعظمِ "إبراهيم باشا" و"أياس (*Ayas*) باشا" و"رستم باشا" و"صوكولُّو (*Sokullu*) محمد باشا". (٨٢)

سيروا بأمر الله

من بين الخطاباتِ والرسائلِ السلطانِيَّةِ التي كانت تُرسَل من قِبَل السلطان ورجالِ الدولةِ إلى ملوكِ بولندا، التي نجدُها محفوظةً في الأرشيفِ الرئيسِ الخاصِّ بالوثائقِ القديمةِ في "وارسو" نجدُ هناك أيضًا رسالتينِ مكتوبتينِ من قِبَل "السلطانة خُرَّم" قرةِ عينِ وحبيبةِ السلطانِ "القانوني" إلى الملك البولندي "زيجموند أوغسط"(٨٣).

وجاءت هذه الرسالةُ في سياقٍ يُوضِّح أنها كُتِبت في القرن السادس عشر، من قِبَلِ زوجةِ الحاكمِ العثمانيِّ إلى ملكٍ أجنبيٍّ، وتعتبرُ إقامةُ "السلطانة خُرَّم" علاقاتٍ دبلوماسيةً مع ملكِ دولةٍ أجنبيَّةٍ، وإسهامُاتها بشكلٍ إيجابيٍّ في الحياةِ السياسيّةِ للدولةِ العثمانيَّةِ، وهي في أَوجِ قدرَتِها، وسعيُها لتقويةِ وتعزيزِ بلادها، أمرٌ عظيمٌ ولم يسبقها أحد إلى مثله، فتستحقُّ لأجله التهنئةَ والتقديرَ.

* * *

إن أوَّلَ الخطابات التي أُرسلت من قبل "السلطانة خُرَّم" إلى ملك بولندا، كان خطابُ تهنئةٍ وعزاءٍ إلى الملك "زيجموند أوغسط" بمناسبةِ جلوسِهِ على عرشِ بولندا خلفًا لوالده "زيجموند الأول" الذي تُوفي عام (١٥٤٨م).

(٨٢) أُوجْتُومْ، المصدر السابق، ص ٧١١.

(٨٣) أُوجْتُومْ، المصدر السابق، ص ٦٩٧.

وها هي بعض جُمَلِ الخطاب الذي أُرسِلَ من قِبل "السلطانة خُرَّم" إلى "وارسو" مع رسولٍ خاصٍّ يُدعى "حسن آغا":

"وصلَنا نبأ تقلُّدِكم للحكمِ بعد وفاةِ والدِكم، اللهُ المحيطُ بكلِّ شيءٍ يعلمُ كم سُررنا كثيرًا وابتهجنا وملأت السعادةُ قلوبَنا، والفرحةُ والسرورُ نفوسَنا عندما عَلِمْنا بنبأِ تسلُّمِكم الحكمَ، إننا نتمنَّى لحكمِكم دوامَ البقاءِ والبركةِ والخيرِ، وحيث إن الأمرَ بيدِ اللهِ، فإننا نوصيكم باتباعِ أوامرِ الحقِّ ﷻ والسيرِ على الصراطِ المستقيمِ...

أضعف الفقيرة، "السلطانةُ خَاصَكِي" القحيرة[٨٤]

كما نجدُ كذلك ختمًا ممهورًا على ظهرِ الرسالة[٨٥].

* * *

وردًّا على رسالةِ الشكرِ التي أرسلها الملك "أوغسط" فقد أرسلت السلطانة مع رسولِها الخاصّ "حسن آغا" رسالةً أخرى، وها هو ملخَّصُ الرسالةِ التي ردَّت بها "خُرَّم":

"أسأل الله أن يطيلَ في عُمْرِ جلالةِ الملك وأن يبارِكَ فيه ... إن الكلمات لا تستطيع أن تُعَبّر لكم عن السعادةِ العارمةِ والفرحةِ التي شعرنا بها عند وصولِ خطابِكم العزيزِ إلينا... إن ما يحمله لنا الردُّ الواردُ بخطابكم، يُظْهِرُ بوضوحٍ عظيمَ المحبَّةِ والوُدِّ الذي تُكِنُّونه لنا.

لقد أسعدنا كثيرًا ما عبَّرتم عنه بشكلٍ جليٍّ من تقارب صادقٍ من جانبكم تجاهَ سلطاننا، إن مشاعرَ الوُدِّ التي وردت في خطابِكم، والرغبةَ في الصداقةِ التي بيَّنتموها لرسولنا (حسن آغا) عندما

(٨٤) تريد أن تقول هنا أنها: فقيرة الفقراء. المتواضعة. السلطانة "خَاصَكِي".

(٨٥) أُوجْتُومْ، المصدر السابق، ص ٧١٢.

عرضناها على حضرةِ السلطان وجدناه -وهو الملجأُ الوحيدُ لأيِّ إنسانٍ في العالم- قد سُرَّ كثيرًا لما وَجَدَهُ منكم من تقارب ومجاملةٍ، وقد بلغ به السرورُ إلى درجةٍ لا تستطيعُ الكلماتُ أن تصِفَها، حتى قال جنابُه:

"لقد كنتُ أنا والملكُ الأكبرُ -يقصدُ والدَه الملك "زيجموند الأول" الذي تُوُفِّي- كالشقيقين، وبمشيئةِ اللهِ الرحمنِ سنكونُ مع هذا الملكِ كالأبِ وابنِهِ...".

ومن شدَّةِ ابتهاجِ سلطانِنَا، فقد أعادَ إرسالَ رسولِهِ "حسن آغا" مرَّةً ثانيةً ليمثُلَ أمام مقامِكُمُ العالي.

لِتَعْلَمْ جيِّدًا يا فخامةَ الملكِ، أنه إذا ما تمَّ الحديثُ عنكم أمام السلطان في أيِّ موضوعٍ، فإنه من دواعي السرورِ لنا أن نتكلَّمَ عنكم بالمعروفِ، وأن نذكُرَكُمْ بكلِّ خيرٍ.

أضعف الفقيرة، "السلطانةُ خَاصَكِي" القحيرة (٨٦)

هل "السلطانة خُرَّم" هي المخطئة أيضًا!

كما ذكرنا آنفًا فقد استفادتِ الدولةُ العليَّةُ في عصْرِ "سليمان القانونيّ" من إقامةِ علاقاتٍ ثنائيّةٍ قويّةٍ بين الدولةِ العثمانيّةِ وبولندا والمؤرخون من جانبِهم أكَّدُوا بشكلٍ قاطعٍ على هذهِ الحقيقةِ، لكن بعضَ المؤرِّخينَ ادَّعَوا -كما هو الحال بخصوصِ كافَّةِ الأمورِ التي وقعت في فترةِ حياةِ "السلطانة خُرَّم"- أنَّ السلطانةَ سعت لإقامةِ علاقةِ صداقةٍ وطيدةٍ بين الدولةِ العثمانيّةِ وبولندا من أجلِ خدمةِ مصالحِها الخاصّةِ بها!

فنجد الأستاذ الدكتور "بكر صدقي بيكال (*Bekir Sıtkı Baykal*)" في المؤتمرِ الذي حملَ عنوان "العلاقاتُ التركيّةُ البولنديّةُ عبَر التاريخِ"، يقول لنا:

(٨٦) أُوجُتُومْ، المصدر السابق، ص ٧١٣.

"يلاحَظُ أنه في النصفِ الثاني من فترةِ حُكْمِ "سليمان القانونيّ"، كان سفراءُ بولندا يفِدونَ تقريبًا كلَّ عامٍ إلى إسطنبول، ولا شكَّ في أنَّ "السلطانة خُرَّم" كان لها نصيبٌ في السياسةِ التي اتَّبَعَها "القانونيُّ" تُجاهَ بولندا...".

كذلك يومئُ الدكتور "بكر صدقي" إلى أن السلطانةَ كانت تُكِنُّ عاطفةً خاصَّةً تجاهَ البولنديّين، إلا أنه يقدِّمُ لنا هذه الادعاءاتِ من غيرِ دليلٍ يدعمُها.

أما الكاتب والصحفي "يِلْمَازْ أُوزْتُونَا (*Yılmaz Öztuna*)" فيتحدَّثُ عن قيامِ "السلطانة خُرَّم" بإرسالِ خطاباتٍ موجّهةٍ إلى ملكِ بولندا، كانت تخاطبُهُ فيها بكلمةِ "أخي"، إلا أننا لا نجدُ أيَّ وثيقةٍ في الأرشيفِ البولنديّ تؤكّدُ هذا الادعاءَ، إن "السلطانة خُرَّم" كانت حريصةً في الخطاباتِ التي أرسلَتْها إلى الملكِ البولنديّ "زيجموند أوغسط" على أن تخاطبَهُ قائلةً: "فخامةَ الملكِ"، أمَّا "نجاد أُوجْتُومْ (*Nejat Uçtum*)"، الذي ظلَّ لسنواتٍ يعملُ مستشارًا في السفارةِ التركيَّةِ بالعاصمةِ البولنديَّةِ "وارسو"، فيَذْكُرُ لنا كلامًا يتعلَّقُ بـ"السلطانة خُرَّم"، على النحوِ التالي:

"إن السلطانة "خَاصَكِي" تعتبر نَفْسَهَا بولنديّةً أكثر من أنها روسيّة؛ لأن المكانَ الذي وُلدت فيه –روكسلان، أي: "خُرَّم" – كان يقع في ذلك الوقت ضمن حدودِ الدولةِ البولنديّةِ، إن التعبيراتِ التي استخدمتها "السلطانة خُرَّم" في المراسلاتِ التي كانت بينها وبين "زيجموند الثاني"، تدفعنا إلى الاعتقادِ بأن السلطانة "خَاصَكِي" كانت تلعبُ دورًا هامًّا للغايةِ ومؤثرًا في السياسةِ الخارجيّةِ للدولةِ العثمانيّةِ، لا سيّما فيما يخصّ العلاقاتِ بينَ بولندا والإمبراطوريّةِ العثمانيةِ".

لكنَّ الدليلَ الذي يتحدَّثُ عنه السيد "أُوجْتُومْ" هنا لا يعدو أن يكون رأيًا شخصيًّا[٨٧].

(٨٧) أُوجْتُومْ، المصدر السابق، ص ٧١٥.

إن السيد "أُوجْتُومْ" يقول في الصفحة رقم (٧٠٩) من كتابه:

"إن السلطانَ القانونيَّ لم يكنْ في السنوات الأولى من علاقتِهِ مع "خُرَّم" -أي في السنواتِ الأولى من حكمِهِ- خاضعًا لتأثيرِها، ولهذا السبب لا نراه في تلك المرحلةِ يهتمُّ بمراعاةِ سياسةِ الصداقةِ والتقاربِ مع بولندا، لكنَّنا نجدُ فيما بعدُ أنّ علاقةَ المصالحِ المشترَكةِ بين الدولتين من ناحية، والدورُ البنَّاءُ الذي لعبَتْهُ "خُرَّم" من ناحيةٍ أخرى، قد ساهما في تمهيدِ الأرضِ لتُصبحَ مهيئةً لأَنْ تبلغَ العلاقاتُ العثمانيّةُ البولنديّةُ درجةً يمكنُ أن يُطلَقَ عليها ذروةَ التكامل".

وإذا كان السلطان القانوني قد طَوَّرَ سياسةَ الصداقةِ بين بلاده وبولندا بتأثيرٍ من "خُرَّم"، واستفادت الدولةُ العثمانيَّةُ من وراءِ هذه الصداقةِ من غيرِ أن يلحقها ضررٌ، فهل يَضيرُ هذا أحدًا؟ وهل يمكن اتهام "السلطانة خُرَّم" بالخطإِ حالةَ كونِها تقومُ بدورٍ إيجابيٍّ في سبيلِ تطويرِ العلاقاتِ الثنائيّةِ بين الدولةِ العليّةِ العثمانيّةِ وبولندا؟

أما الدكتور "نِعْمَة طَاشْكِيرَانْ (*Taşkıran*)" فيذكرُ لنا هذه العبارات:

"إن قيامَ إحدى نساءِ القصرِ، وزوجةِ السلطان، بمنتهى الحريَّةِ -أثناءَ تمركزِ السلطانِ"سليمان القانونيّ مع جيشه في (حلب)- بكتابةِ خِطابِ تهنئةٍ إلى ملكٍ أجنبيٍّ، لا يُعتبَرُ من الأمورِ المُستساغةِ والمقبولةِ كثيرًا في تلكَ الفترةِ".

ادعاءاتٌ واتهاماتٌ لا سَنَدَ لها

أولًا: لا يوجدُ أيُّ وثيقةٍ رسميَّةٍ نجدُها في أيّ سجلٍّ من سجلَّاتِ الأرشيفِ تشيرُ إلى أن "السلطانة خُرَّم" ترجِعُ بِنَسبِها إلى أصول بولنديّةٍ، وفيما يتعلَّقُ بهذه المسألةِ نجدُ أنّ المؤرِّخين قد طرحوا أمامَنا العديدَ من الادِّعاءاتِ المختلفةِ.

فمثلًا، نجدُ الأستاذ الدكتور "جُوكْبِيلْجِينْ" يذكرُ أنَّ "السلطانة خُرَّم" قد أُخِذَتْ أسيرةً أثناءَ الهَجَمَاتِ التي كان يشنُّها تتارُ القِرمِ على الأراضي التابعةِ في ذلك الوقتِ للدولةِ البولنديّةِ، والتي نراها تقعُ اليومَ ضمنَ حدودِ أوكرانيا.

أما "إسماعيل حامي"، فنجدُهُ يذكرُ أن هناكَ مجموعةً من الروايات من مصادرَ متنوّعَةٍ تُشيرُ إلى أنّ أصلَ "خُرَّم" إمّا أن يكونَ روسيًّا أو بولنديًّا، ووفْقَ أقوى الرواياتِ الراجحةِ لديه، فإنه يرى رُجحانَ كونِ "خُرَّم" بولنديَّةَ الأصل، وأما "جَغَطَايْ أُولُوجَايْ"، فيقول:

> "إذا كانت هناك ادّعاءاتٌ بأن "خُرَّم" هي ابنةٌ لأحدِ القساوسةِ الروس، فإنَّ هناكَ أيضًا ادعاءاتٌ تشيرُ إلى أنها قد تكونُ إيطاليَّةً أو فرنسيَّةً".

وخلاصةُ القولِ أنه لا يوجدُ دليلٌ قاطعٌ، يُحدِّدُ لنا العِرْقَ أو الوطنَ الذي كانت تنتمي إليه "خُرَّم".

ثانيًا: هل بِيَدِ الإنسانِ أن يختارَ بنفسِهِ بينَ أن يُولَدَ روسيًّا أو بولنديًّا، أم هل ثَمَّةَ جريمةٌ في أن يولدَ الإنسانُ روسيًّا أو بولنديًّا؟ وبما أن الإنسانَ لا يَدَ له في اختيارِ عِرقِه أو لونِه أو قومِهِ، فإننا بالتالي لا يمكنُ أن نحاسبَهُ على أساسِ وطنِهِ أو أصلِهِ أو عِرْقِه، إننا فقط يمكن أن نُحاسِبَ الإنسانَ على أساسِ أفكارِهِ وقناعاتِه وتصرفاتِه.

لقد قَدِمَتِ "السلطانة خُرَّم" إلى القصرِ وهي بينَ الرابعةَ عَشَرَ والسادسةَ عَشَرَ من عُمُرِها، واعتنقتِ الإسلامَ بعد أن تلقَّتْ تعليمًا دينيًّا متقدّمًا ومكثفًا إلى حدٍّ كبيرٍ، وعندما صار عُمرُها يتراوحُ بين الثامنةِ والثلاثين والأربعين أصبحَ لها إسهاماتٌ واضحةٌ في الحياةِ الدينيّةِ والاجتماعيّةِ داخلَ الدولةِ، حيث نجدُها قد أنشأت مجمَّعًا كبيرًا ضَمَّ بداخله جامعًا ومدرسةً دينيّةً ودارًا لإطعام المساكين ومدرسةً للصبيان، فهل يتوافقُ مع

العقلِ والمنطقِ الزعمُ بأن المرأةَ نفسَها تعملُ -لا سيّما بعد أن انتسبت للقصر وصارت زوجةً السلطانِ سليمان المبجَّل- ضِدَّ دولةٍ هي سيدتُها الأُولى، ومعشوقةُ سلطانِها، لصالحِ دولةٍ أخرى -بولندا- تعتبرُها وطنَها، لكونِها مَحَلَّ ميلادِها فحسْب؟!

ثالثًا: هل كانت علاقةُ الصداقةِ التي عملت "خُرَّم" على عقدِها مع ملكِ بولندا، تتنافى مع السياسةِ التي كانت تتَّبِعُها الدولةُ العثمانيَّةُ مع الدولِ الأوروبيّةِ؟ وهل سبَّبت تلك العلاقةُ ضررًا للدولة العَلِيَّة؟ وهل تأثَّرت الدولةُ العثمانيّةُ بشكلٍ سلبيّ من جراءِ التقاربِ الذي حدث بين "السلطانة خُرَّم" وملكِ بولندا؟ إننا لا نجد في المصادرِ التاريخيَّةِ أيَّ وثيقةٍ أو رأيٍ يُشيرُ إلى أيّ ادِّعاءٍ مما سبق.

رابعًا: هل كانت "السلطانة خُرَّم" تقيم هذه العلاقات خُفْيَةً دون علم زوجها "السلطان سليمان"؟ ليسَ كذلكَ أبدًا؛ فالتعبيراتُ الواردةُ في الخطاباتِ تفيدُ وتبيّنُ بوضوحٍ أنَّ هذه المراسلاتِ كانت تَتِمُّ بِعلمِ ومعرفةِ السلطان.

النتيجة: إن الاعتمادَ على خطابيْنِ كَتَبَتْهما "السلطانة خُرَّم" -التي لم يتأكّدْ بشكلٍ قاطعٍ أنها بولنديّةُ الأصلِ- إلى ملكِ بولندا، للحُكْمِ عليها بأنها كانت تسعى لإيقافِ حملةٍ عسكريّةٍ عثمانيَّةٍ على بولندا، وتُكافِحُ من أجلِ إنقاذِ أبناءِ شعبِها من الفناءِ! ليس ادعاءً يفتقر إلى دليلٍ فَحَسْب، بل إنه اتهام عَبَثِيٌّ لا أصلَ له.

إن أصحابَ هذه الادعاءات يَهدِفونَ من وراءِ هذه الاتهاماتِ التي وجَّهوها للسلطانة "خُرَّم"، إلى القول بأن سليمان القانوني، الذي عُرِف واشتهر في العالم الغربيّ بلقبِ "سليمان المعظَّم"، كان يَعْمَل ضِدَّ مصالحِ

الدولةِ العثمانيَّةِ بسببِ عشقِهِ امرأةً أوروبيّة الأصلِ، وبُغْيتُهم من وراءِ ذلكَ زعزعةُ مكانةِ هذا "الحاكم العظيم"، ومِن ثَمَّ فإن اتهاماتِهم تظلُّ وستظلّ بلا قيمةٍ لأنها تفتقدُ إلى البَرهَنةِ المنطقيَّةِ والتوثيقِ العقلانِيّ، كما أنَّ القولَ بأن "السلطانة خُرَّم" كانت تُحرّك وتوجّه بمفردِها السياسةَ الخارجيَّةَ للدولةِ العثمانيَّةِ، إنما يَنُمُّ عن جهلٍ وعدمِ معرفةٍ بالدولةِ العليَّةِ العثمانيّةِ وإدارتِها.

مجموعةُ هدايا بقيمة عشرة آلافِ ليرةٍ

في الشهور الأولى من عام (١٥٤٨م)، كانت الاعتداءات الإيرانية على الحدود لا تنقطع، كما تمكن الصفويُّون من احتلالِ عِدَّةِ أماكنَ وعلى رأسِها قلعةُ "وَانْ (*Van*)"، كما عمِلَ الصفويُّونَ بِدَأَبٍ على نشرِ المذهبِ الشيعيّ في أعماقِ الأناضولِ، وبذلوا كلّ طاقاتهم في الدعايةِ والإعلان لنشرِ مذهبهم، كان السلطانُ قد عقدَ قبلَ ذلك التاريخِ بعامٍ واحدٍ، اتفاقيَّةَ سلامٍ مع النمسا وألمانيا، وبذلك يكون "سليمان القانوني" قد اطمأنَّ إلى أنَّ الجبهةَ الغربيَّةَ قد أصبحت في مَأْمَنٍ، وحانَ الوقتُ للانتهاءِ من المشاكلِ التي يُسبِّبُها الإيرانيون، وفي ذلك الوقت حدثَ تطوُّرٌ آخرُ غير متوقَّعٍ؛ حيث إن "ألكاس مرزا (*Elkas Mirzâ*)" شقيقَ الشاهِ الإيرانيّ "طهمسب الأول" وحاكمَ ولايةِ "شيرفان (*Şirvan*)" الإيرانيَّةِ كان يَطْمَح إلى الحكمِ، لكن نتيجةً للضغوطِ التي مارَسَها أخوهُ الأكبرُ عليه، اضطرَّ إلى الفرارِ هو ووزيرُهُ وبعضُ أركانِ الدولة، وجاءَ إلى إسطنبول عن طريق "القبجاق" و"القرم"، في تلك الأثناءِ كانَ السلطانُ مقيمًا في قصرِ "أدرنه"، وعندما علِمَ بقدومِ الأميرِ الصفويّ لاجئًا وطالبًا العونَ، أمرَ بإنزالِهِ ضيفًا في القصرِ، كما أمرَ بتوفيرِ كافَّةِ متطلباتِهِ.

* * *

أبدى القانونيُّ اهتمامًا كبيرًا وعنايةً بالأميرِ "ألكاس مرزا"، وبعدَ يومينِ من وصولِهِ إلى إسطنبول أقامَ لهُ مأدُبَةً عظيمةً، بالإضافة إلى ذلك فقد أمرَ بإقامةِ ولائمَ على نفسِ الدرجةِ من الفخامةِ من أجلِ وزرائِهِ وأعوانِهِ.

وقد أسهَبَتِ المصادرُ العثمانيّةُ طويلًا في وصفِ الهدايا التي قدَّمها السلطان وزوجتُه إلى الأميرِ الصفويّ، وتحكي لنا تلك المصادرُ أنه كان من ضمنِ الهدايا التي أُرسِلت بعدَ يومٍ من إقامةِ المأدبةِ التي أمرَ بها القانونيُّ في القصرِ، أكياسٌ وأطقمُ حُليٍّ من الذهبِ والفضَّةِ، وأقمشةٌ ثمينةٌ، وقِطَعٌ نادرةٌ من الفراءِ، وسروجٌ مذهَّبَةٌ ومُرصَّعة ومراكبُ فخمةٌ، وسيوفٌ وأسلحةٌ متنوّعةٌ، وعبيدٌ وجوارٍ، وأحصنةٌ وبغالٌ.

وتحكي لنا المصادر أيضًا عن الهدايا التي أرسلَتها "السلطانة خُرَّم" التي تُقَدَّر قِيمتها بما يزيد عن عشرةِ آلافِ ليرَةٍ ذهبيّةٍ، ومن بين هذه الهدايا كانت توجدُ القمصانُ الحريريّةُ التي خاطَتْهَا بيديها، والملابسُ المزيَّنَةُ بأشرطةٍ ذهبيّةٍ وفضيَّةٍ، والألحِفَةُ والأرضيّاتُ والوسائدُ والمفروشاتُ المشغولةُ بالذهبِ(٨٨).

وكما ذكرنا، فإن السلطانَ بعدَ أن اطمأنَّ إلى استقرارِ الأوضاعِ على الجبهةِ الغربيَّةِ، عَقَدَ العزمَ على الخروجِ على رأسِ حملةٍ عسكريّةٍ متوجّهًا إلى إيران، وكان قدومُ الأميرِ الصفويّ اللاجِئِ عاملًا مؤثِّرًا في إسراعِ السلطانِ في اتّخاذِ هذا القرار، ولكنَّ بعضَ المصادِرِ تشيرُ إلى أنّ الأميرَ الصفويَّ "ألكاس مرزا" وقبلَ فِراره إلى إسطنبول باتَتْ لديه قناعةٌ بالعملِ لحسابِ الدولةِ العثمانيّةِ، وتذكرُ لنا هذه المصادرُ أيضًا أنَّ الأميرَ الصفويَّ كانَ قد وُعِدَ أيضًا بالجلوسِ على عرشِ إيران، بالتأكيدِ لقد كانَ الهدفُ

(٨٨) دَانِشْمَنْد، المصدر السابق، الجزء الثاني، ٢٥٤-٢٥٥.

مـن وراءِ ذلـك هو القضاءُ على التشـيُّعِ الإيرانيّ، وإعـادةِ إحياءِ المذهبِ السُّـنِّيّ فـي الدولةِ المجاورةِ، إلى جانب القضـاءِ تمامًا على الخطرِ القادمِ من الشرقِ.

أما المصادر الغربية فتزعم أن "السلطانة خُرَّم" كان لها دورٌ في الحملةِ العسـكريّةِ التي وُجّهت إلى إيران، وبناءً على هذه المصادرِ فإن السـلطانةَ كانت تُخطط لاستغلال هذه الحملةَ في سبيلِ أن تجعلَ وراثةَ السلطنةِ في أبنائِها، كذلك فقد كانت "خُرَّم" تريدُ أن يكونَ ابنُها "بيازيد" هو وليّ العهدِ بـدلًا من الأمير مصطفى، ولتحقيقِ تلك الغايـة فقد أخذت تُمَهّدُ الطريقَ؛ لكي تُمسِكَ مقاليدَ أمورِ الدولةِ في يديها.

* * *

بـدأ الجيـشُ السـلطانيُّ فـي التحـرُّكِ مـن إسـطنبول بتاريـخ الثامـن والعشـرين من نيسـان/إبريل من عام (١٥٤٨م)، واستطاعَ أن يَصِلَ "تبريز" في أواخرِ يوليو، وخلالَ فترةٍ وجيزةٍ تمَّت السيطرةُ على المدينةِ من جديدٍ كما تمَّ تطهيرُها من الشـيعة، وبحلول أواخرِ أيلول/سـبتمبر، بدأ السـلطانُ فـي التحـرُّكِ إلى "وَانْ" حيث تمكَّنَ من اسـتردادِها مـرَّةً أخرى، بعدَ ذلكَ وفـي الخامس والعشـرين من تشـرين الثاني/نوفمبر عـام (١٥٤٨م) توجّهَ السـلطانُ إلى "حلبَ" مارًّا بمدينـةِ "ديار بكر" حيثُ عقدَ العزمَ على قضاءِ الشتاءِ هناك .

فليُخسَفْ بهِ كما خُسِفَ بـ"قارون"

أثنـاء الفتـرةِ التـي مكَثَها السـلطانُ فـي "حلب" من أجلِ قضـاءِ فصلِ الشـتاءِ، لـم تكُـنْ تتأخَّرُ عنـه أيضًا خطابـاتُ "خُـرَّم" المُشـبَّعةُ بالدعاءِ لهُ وتمنياتِ الشـفاءِ، وها هي "السـلطانة خُرَّم" تُناجي -من جديد- السـلطانَ

الحبيبَ الذي يلهُو مع الجِيادِ في رحلاتِ الصيدِ التي كان مُولعًا بها، فتكتبُ لهُ قائلةً:

"سلطانيَ الحبيب، إنّني أَلْهَجُ بالثناءِ والدعاءِ ألفَ مرَّةٍ ومرَّةٍ، وأقبّلُ يديك المباركتينِ، مُعفِّرةً وجهيَ تحتَ قدميك، وأنا أحمِلُ بداخلي ألفَ لَوْعةِ اشتياقٍ، تخرجُ من قلبي وروحي ولساني...

"يا نور عيني، يا سلطاني الذي أفديه بروحي، إنّ أمَلِي أن تتقبّلَ اشتياقي العظيم من جاريتكم التعيسة...

سلطاني، كيف مزاجُكُمُ الشريفُ المباركُ، وهامتُكُم المباركةُ، وقدميكُمُ الطاهرتين، وجوارحُكم جميعها؟ أتمنَّى أن تكونَ بإذنِ اللهِ في خيرِ صحَّةٍ وعافية، إن كلَّ طلبي من الباري ﷻ، هو أن يتكرَّمَ ويصونَ ذاتَك الشريفةَ من كلِّ الأخطارِ والبلايا، وأن يجعلَكَ على الدوام في حفظِه ورعايتِه، أطالَ اللهُ عمركَ مثل نوحٍ عليه السلام"(٨٩).

* * *

وتتابعُ السلطانةُ في خطابِها شرحَ ما بها من ألمِ الفراقِ ونارِ الحسرةِ:

"سلطانيَ المُبَجَّلُ، يا نورَ عينَيَّ، وسلوان قلبي، يا منبعَ حسرتي التي أصبحت تفوق الكون كلَّه جرّاءَ البعد عنك !.

يا ليتكم تتكرَّمون بالسؤالِ عن حالي البائسِ لبعدكم، لقد احترق كبدي من الألمِ والحسرة، وتذفَّقَت الدموعُ من عينيَّ كالسيل من وجعِ الفراق، واللهُ وحده الذي يعلم ما أُعانيه بهذا البِعاد، وكيف أنني سئِمتُ وملْتُ كلَّ شيءٍ بعد غيابكم عني، واللهِ إنّني لا أستطيعُ أن أصِفَ فرحتي أو أُعبّرَ عن بهجتي عندما أرى جمالكم قد لاحَ لي، يعلم الله أنني أحترقُ ليلًا ونهارًا من لهيبِ الفِراقِ وحسرةِ البِعادِ، يعلم الله أنني لم أعدْ أعرفُ طعمَ الراحةِ بعدك، فأنا لا أجِدُ خيرًا أو هناءةً ما دمْتُ بعيدةً عن ترابِ قدمِكَ المباركةِ".

(٨٩) الخطاب كان مكتوبًا باللغة التركية العثمانية المليئة بالكلمات العربية والفارسية.

السلطانةُ تنقلُ المعلوماتِ إلى السلطان:

"سـلطانيَ العزيز، لقد حدثَتْ جَلَبَةٌ في المدينةِ عندما أُشـيـعَ أنّ البشـيـرَ قادمٌ، وأخذَ الناسُ يسـتعدُّونَ لتزييـنِ المدينة؛ ينتظرونَ دخـولَ البشـيـرِ، فـي الوقتِ الـذي تُعَسْـكِرُ فيه يا سـلطاني العزيز بقواتِـكَ فـي "حلبَ"، ولما لمْ يُقبَضْ علـى أيٍّ من ذوي الرؤوسِ الحمـراءَ (تقصـدُ الشـيعةَ الصفويّينَ)، فلن يكونَ هنـاكَ أيُّ جديدٍ علـى السـاحةِ؛ ومِن ثَـمَّ فإن قدومَ البشـيـرِ لن يفرّحَ أحـدًا، بل قد تحـومُ الشـائعات: تُرى أيأتي البشـير ليخبر بأن حضرة السـلطان سيقضي الشتاء في حلب؟".

* * *

"خُرَّم" تنهي خطابها بالدعاء على الشاه "طهمسب":

"أسـأل الله ﷻ يا سـلطاني، أن يقضي على هـذا الملعون في أقرب وقت، ويهلكه، ويجعل عاقبته كعاقبة "قارون" [٩٠].

يظهـر لنـا هذا الخطـاب المليءُ بالحـبِّ والمشـاعرِ، الذي أرسـلته "السـلطانة خُـرَّم" ذات الخامسـةِ والأربعيـن عامًـا إلـى زوجِها السـلطان القانونيّ ذي السادسةِ والخمسين عامًا، يظهرُ لنا بشكلٍ جليٍّ للغايةِ مقدارَ المحبّةِ العميقةِ والقويَّةِ التي كانت تجمعُ "خُرَّم" و"سليمان". [٩١]

* * *

(٩٠) أُولُوجَايْ، رسائل العشق للسلاطين العثمانيين، إسطنبول – ٢٠٠١م، ص ٦٤-٦٦.

(٩١) يذكر لنا " تشغطاي أولوتشاي" في كتابه الذي صدر عام (١٩٥٦م) تحت عنوان (رسائل من الحريم) أن هناك سبعة خطابات قد أرسلت من "السلطانة خُرَّم"، إلا أن المؤلف يخبرنا أنه بعد صدور الكتاب قد ظهر خطاب آخر جديد في مكان آخر ينسب إلى "السلطانة خُرَّم"، وذلك تحت اسم مختلف، وهكذا فإن مجموع ما قد نسب إلى "السلطانة خُرَّم" من خطابات أرسلتها إلى السلطان "القانوني" يبلغ ثمانية خطابات بِناءً على ما يذكره صاحب الكتاب.

obeikandl.com

تحرَّك القانوني من "حلب" على رأسِ الجيشِ السلطانيّ في حزيران/يونيو من عام (١٥٤٩م)، واستطاع أن يصل إلى إسطنبول في الحادي والعشرين من كانون الأول/ديسمبر بعد أن مر بطريق "ديار بكر"، وفي مراسلاته مع الحكام الأصدقاء ذكر أنه قد تمكَّنَ في تلك الحملةِ العسكريَّةِ من أن يفتحَ إحدى وثلاثين مدينةً[٩٢].

شائعات حولَ "القانونيِّ"

بحلول عام (١٥٥٣م) كان هناك أربعةُ أبناء ذكور أحياء للسلطان "سليمان القانوني" وهم "سليم" و"بايزيد" و"جِهَانْجِرْ" والأمير مصطفى أكبَرُهم سنًّا، كان الأميرُ مصطفى في عامِهِ التاسعِ والثلاثين أمّا الأمير "سليم" فكان في الثلاثين من العمرِ و"الأمير بايزيد" في الثامنةِ والعشرين أما "الأميرُ جِهَانْجِرْ" فكان في الثالثةِ والعشرين، كان السلطان سليمان يقتربُ من سنِّ الستّين وكان تقدُّمُهُ في السنِّ يزيدُ من قلقِ أبنائِهِ حولَ من سيخلُفُهُ في الحكمِ من بينهم، كان الأميرُ مصطفى قد تلقَّى تعليمًا جيّدًا، كما كان محبوبًا من قبل العسكرِ (الإنكشارية) وكذلك من قِبَلِ المثقّفين، وكان ذلك لمزاياه التي شملت صلابةَ الشخصيّةِ إلى جانبِ الجِدِّيَّةِ والأخلاقِ الحميدةِ التي كان يمتلِكُها، وبالنظرِ إلى سِنِّهِ ووضعِهِ الذي كان قائمًا فقد كان الأمير مصطفى يُنظَرُ إليه على اعتبارِ أنه هو السلطانُ القادم[٩٣].

في تلك الأثناء كانت الحملاتُ العسكريَّةُ التي يقودُها "سليمان القانوني" سواءً إلى الشرق أو الغربِ قد نالت منه وأرهقَتْهُ، وفي الأعوامِ الأخيرةِ أصبحَ "السلطان سليمان" يديرُ الحملاتِ العسكريّة الموجَّهَةِ

(٩٢) أَكْسُونْ، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٣٠٧.

(٩٣) أُوزُونْ جَارْشِيلِي، المصدر السابق، ص ٤٠١.

إلـى الغـربِ من خلالِ وُزَرَائِهِ دونَ أن يخرجَ بنفسِـهِ إلـى أرضِ المعركةِ، وفي مواجهةِ تجاوزاتِ الصفويّين واعتداءاتِهم على "أرضروم" و" أخلاط (*Ahlat*)" فقد قام القانونيُّ بإرسـالِ الصدرِ الأعظمِ "رسـتم باشا"، مما نتَجَ عنه انتشارٌ للشائعات المتلاحقة بين الشعب والجيش.

وقـد كانت القناعة أو الرأي العام السـائد في تلـك الحقبة من الزمان يُحَمِّـل السـلطان من المسـؤوليات بقدر ما يحمِـلُ لهُ من تبجيـلٍ وتقديرٍ وتقديـسٍ واحتـرامٍ، وبنـاء على هـذه الفِكرةِ فـإنَّ السـلطانَ العثمانيَّ كان يُمثِّـلُ فـي النفوس الرجـلَ المقدَّسَ والقويَّ الذي يُجَسِّـدُ أكبرَ قـوَّةٍ مادِّيَّةٍ وروحيَّـةٍ علـى وجهِ الأرض والذي لا يحقّ لهُ أن يشـكوَ التعبَ أو يطلبَ الراحةَ، وكانت أبسطُ نقطةِ ضعفٍ لدى من يشغلُ هذا المنصبَ تؤدّي إلى انتقاداتٍ كبيرةٍ بسببِ حماسةِ الروحِ القوميّةِ الهائجة(٩٤).

"صولاك زاده" يشرح لنا على النحو التالي حال الجيش:

> "يتردد بين العسكر أنه بسبب كبر سن السلطان وتدهوُرِ حالته الصحيّة فإنه لم يعد يستطـع أن يخرجَ بنفسه على رأس الحملات العسـكريَّةِ ويُفَضِّلُ أن يرسـلَ الصدرَ الأعظمَ على رأسِ الجيشِ، كمـا يتـردَّدُ كلامٌ يفيـد بـأنّ هناك رغبةً فـي تولية الأميـر مصطفى مقاليـدَ البلادِ وإجلاسـه على العرش ولكن "رسـتم باشـا" يحول دون ذلك "(٩٥).

(٩٤) أَكْسُونْ، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٣١٤.

(٩٥) هناك أخبار قد انتشرت بين صفوف الجيش السلطاني وقد أصبحت هذه الأخبار التي لا يعقل بعضها على لسان الجنود والتى صارت تملأ الأجواء تقول أن: "السلطان قد أصبح كبيرًا للغاية في السن وقد أتعبته الحروب ونالت من عافيته، ولم يعد بإمكانه بعد اليوم أن يعمل أو أن يشترك في الحروب، من أجل ذلك فقد قام السلطان بتنصيب "رستم باشا" كحاكمٍ على الأناضول، لكن "رستم باشا" كان هو المانع الذي يحول دون تحقيق رغبة السلطان في تنصيب أمير الحق والانصاف الأمير السلطان مصطفى على العرش!" وقد أصبحت هذه الأحاديث والأقوال هي محور حديث الناس كلهم في الروحة والإياب. (دَانِشْمَنْد، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٢٧٩).

سقوط الأمير في الفَخِّ

المؤرخ الكبير "بَجَوِي (*Peçevî*)" يسجل لنا ما يلى:

"لقد كان الأمير مصطفى الذي يقتربُ من سنِّ الأربعين يتمتّعُ بشخصيَّةٍ مميزةٍ لدرجةِ أنها قد أثارَتْ غيرةَ باقي الأمراءِ، حيث كان منبعُ تلك الغيرةِ ما يتحلّى به الأميرُ مصطفى من علمٍ ومعرفةٍ إلى جانبِ الكرمِ والمهارةِ العسكريّةِ، كما كانت أغلبيّةُ العسكرِ تكادُ تكونُ مُجْمِعَةً قلبًا وقالبًا على حُبِّهِ،[٩٦] وبناءً على ما يذكُرُه "بَجَوِي" فإن بعضَ الأشخاصِ الأرذالِ والسّفَلَةِ قد تقرّبُوا من الأمير مصطفى وأخذوا يبثُّونَ في عقلِهِ أمورًا ويقنعونَه ببعضِ الأفكارِ، حتى استطاعوا أن يخدعوا الأميرَ الساذجَ طيّبَ القلبِ، وتمكَّنُوا من أن يُحَرِّضُوه على التمرُّدِ ضدَّ والدِهِ، كان الأمير يستندُ إلى الشعبِ وقوّةِ الجيشِ، فقام بجمعِ العسكرِ من أجلِ المسيرِ إلى الوزيرِ الأعظمِ، وخلاصةُ الأمرِ أنّ الأميرَ قد ضُلِّلَ بشكلٍ أو بآخرَ عن سبيلِ الصوابِ واستطاع ذووا الأفكارِ الشيطانيّةِ أن يُقنِعوهُ برفعِ رايةِ العصيانِ ضدّ والدِه.

عندما أُبلِغَ السلطانُ أن ابنَه مصطفى يدَّعي بأنّ لهُ الحقّ في تولّي حكمِ السلطَنَةِ، وعلى الرغمِ من وجودِ عدّةِ وثائقَ تُؤَكِّدُ ذلك، فإنه لم يقبلْ تلك الادّعاءاتِ، وأصرَّ على رأيِهِ مخاطِبًا "رستم باشا" الذي جاء له بوثائقَ تُثْبِتُ ما نُسِبَ إلى الأمير مصطفى:

> "حاشا لله أن يتجرّأَ الأميرِ مصطفى فتصدرَ عنه مثل تلك الوقاحة، وليس من المعقولِ على الإطلاق بالنسبةِ لمكانتِهِ أن تصدرَ عنه مثلَ تلك الأعمالِ! لكن بعضَ المفسدين الذين يميلون للأمير مصطفى يسعَوْنَ بالبهتانِ للإدّعاءِ والقولِ بأن يكونَ الملكُ له!

(٩٦) دَانِشْمَنْد، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٢٨٠.

حـذارِ، فـلا تعيد مثلَ تلك الكماتِ على لسـانِكَ مرّةً أخرى،
ولا تشـع تلك الأكاذيب!".

إضافةً إلى ذلك فإنّ السلطانَ لم يرِدْ أن يكتفيَ فقط بالكلمات، بل إنه تعمَّدَ أن يضـعَ حدًّا لما يُثَارُ من شائعاتٍ فقرّرَ أن يشتركَ بنفسِهِ في الحملةِ العسكريّةِ الموجَّهَةِ إلى "ناخشيفان (*Nahcıvan*)" ضد شاه إيران، وفي هذا الصددِ نجدُ أنّ هناكَ مقولةً تُنْسَبُ إلى "السلطانة خُرَّم" وهي:

"لا بدّ للشاهِ من شاهٍ يواجهه !)"[٩٧]

وإذا نظرنا إلى هذه العبارةِ، فهمنا عبقرية السلطانة ووجدنا مدى عمقِ إدراكِها وفهمِها الواسـعِ لأمورِ الدولة. [٩٨]

أيهما ينتصرُ: عاطفة الأبوّةِ أم الحرصُ على سلامةِ الدولةِ وبقائها؟

خـرجَ "سـليمان القانونيُّ" في أواسـطِ عام (١٥٥٣م) فـي حملة على "ناخشـيفان"، وطـوالَ فتـرةِ سـفرِهِ كانَـتْ تأتيـهِ أخبارٌ سـلبيّةٌ تتعلَّـقُ بابنِهِ مصطفى، لقد كانت التقارير الوافدة إلى السلطان تؤكد أن الأمير مصطفى عاقـد العـزم على المضـي في طريقه للاسـتيلاء على العـرش، ومن أجل تحقيقِ هذه الغايةِ فإنه قام بالتحالف مـع الصفويّينَ، وإلى جانبِ هذا وظنًّا منه أن ذلكَ قد يدعمُ موقِفَهُ ويعينُه على بلوغِ هدفِهِ فقد أطلقَ لحيَتَهُ[٩٩].

حـرص "السـلطان سـليمان" عندمـا عُرِضَـتْ عليـه هـذه الادعاءاتُ المتعلِّقَـةُ بابنِه على دراسـتِهَا بشـكلٍ دقيقٍ وجادٍّ، كمـا اعتمدَ على مصادرَ مختلفـةٍ اسـتطاعَ مـن خلالِها أن يسـتقيَ المعلوماتِ الصحيحـةَ التي كان

(٩٧) كانت "السلطانة خُرَّم" تريد أن تقول أن السلطان عليه بنفسه أن يتحرك لملاقاة شاه إيران.

(٩٨) أَكْسُونْ، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٣١٥.

(٩٩) كان يفهم قيام أحد الأمراء بإطلاق لحيته على إنه بمثابة أنه إعلان للتمرد والعصيان على السلطان، ومن أجل هذا السبب فإن الأمراء العثمانيين لم يكون أحدهم منهم يطلق لحيته إلا بعد أن يعتلى العرش.

يبغـي الوصولَ إليها دون ميولٍ أو عاطفـةٍ، وبعد الفحصِ والتدقيقِ أصبحَ السلطانُ على يقينٍ من وجودِ فِكرةِ التمرّدِ لدى ابنِهِ مصطفى.

* * *

كان السـلطانُ "سـليمان القانونيّ" حاكمًا يُبدي اهتمامًا كبيرًا بالحفاظِ على الشرعيّةِ وعدمِ انفراط عِقدها وعدمِ إتاحة المجال أمام أيّ فرصةٍ قد تؤدّي إلى إلحاقِ الأذى بالشعب أو حدوثِ حربٍ أهليّةٍ تُسالُ فيها الدماء، فقـد كان حرصُـه على الدولةِ فوقَ أيّ نقطةِ ضعفٍ إنسـانيّة وكان يعتبِرُ أن استيلاءَ والده السلطان "سليم ياووز" على العرشِ خطأٌ أدّى إلى تضعْضُـعِ أركانِ الدولةِ، ولقد استفسَـرَ عن هذا الموضوعِ من "حسـن جان" صديقِ والـدِهِ، كان شـروعُ ابنِهِ في الصـراعِ من أجلِ الحُكمِ سـيفتحُ الطريقَ أمامَ حدوثِ الانقسـام في الدولةِ فيما بعدُ، لقد كان "سـليمان القانوني" عاقدًا العزمَ على أن تظلَّ الدولةُ العثمانيَّةُ دولة خالدةً، وكان حرصُه على سلامةِ الدولةِ والحفاظِ على قوانينِها فوقَ كلِّ شـعورٍ آخرَ لديه، بل لقد كان هذا الحرصُ حتى فوقَ عاطفةِ الأبوّة وأغلى منها[١٠٠].

لقد اختار بقاء الدولة

لقـد ظـلَّ القانونيُّ متردّدًا لعدّةِ مرَّاتٍ خلالَ فترةِ حملةِ "ناخشـيفان "، لقـد كان يتأرجَـحُ بينَ عاطفةِ الأبوَّةِ وبقـاءِ الدولةِ، لكنَّهُ بعدَ اجتيازِهِ لقصرِ "كَرَمَـانْ أَرَغْلِسـي" ووصولِـهِ إلى منطقـةِ "آق تبـه (*Aktepe*)" كان قد اتَّخذَ قـرارَهُ النهائـيَّ، وكان اختيارُه أن يقفَ إلى جانبِ مصلحةِ الدولةِ، في تلك الأثناء كان الأمير مصطفى مكلَّفًا بأن يشـتركَ هو الآخر في الحملةِ، حيث جاءَ مـع عسكرِهِ وأقامَ خيمتَهُ بعد أن انضمَّ إلى الجيشِ السلطانيّ.

(١٠٠) أَكْسُونْ، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٣١٥.

وفـي اليوم التالي وبموجـبِ النظامِ المُتَّبَعِ، توجَّهَ كبـارُ رجالِ الدولةِ نحوَ خيمةِ الأميرِ مصطفى، وقبَّلوا يَدَهُ وهم مرتدون زيَّ التشريفات، وتلى ذلك أن توجَّهَ الأمير مصطفى أيضًا إلى خيمةِ الديوانِ السـلطانيّ من أجلِ تقبيـلِ يـدِ والـدِهِ هو الآخر، قـامَ الـوزراءُ بتحيّةِ الأمير مصطفى، وسـاروا أمامَـهُ حتـى أتَـوْا به إلى خيمةِ والدِهِ السـلطان، عندما دخـل مصطفى إلى الفُسـطاطِ المبسـوطِ لم يتمكَّنْ من رُؤيـةِ والدِهِ، حيث وجدَ في اسـتقبالِهِ هنـاك سـبعةً من الجلاديـنَ الخرس، وبعد أن اسـتوعب الأميـرُ الموقفَ، بدأتْ فترةٌ طويلةٌ من التعاركِ بينَه وبينَ الجلادين العاملين في خدمةِ والدِهِ والذين أخذوا يعملون على خنقِهِ، وعلى الرغمِ من أنه قد نجح في البداية أن يهربَ ويحرّرَ نفسَـهُ من بين أيديهِم، لكنَّ نجاتَه من بينِ أيديهِم لم تدُمْ طويلًا، فقد أمسـكَ بهِ "زال (*Zal*) محمود آغا" هذه المرّةِ وشـرعَ هو ومن معَهُ من الجلادينَ في خنقِهِ إلى أنْ تمَّ إعدامُه خنقًا.

فَقَدَ السلطان ولديه في شهرٍ واحدٍ

لقد أحدث مقتلُ الأميرِ مصطفى صدمةً في الجيشِ حيث أخذَ قُدامى المحاربيـن فـي البـكاءِ، وأعرَبُوا عـن انزعاجِهِم مُحَمّليـنَ الصدرَ الأعظمَ "رستم باشا" المسؤوليةَ الكاملةَ عن هذهِ الحادثةِ، كان "السلطانُ القانونيُّ" باعتبـارِهِ رئيسَ الدولة يتصرَّفُ بأعصاب باردةٍ، وقامَ بعزلِ الصدرِ الأعظمِ في حضورِ الوزراءِ، كما أمرَ بأن يُؤْخَذَ الختمُ السلطانيُّ منه، بعد ذلك عيَّنَ السـلطانُ "قـره (*Kara*) أحمد باشـا" صدرًا أعظمَ جديـدًا، ويُروى أنَّ "قره أحمد باشـا" كان يحظى بِحُبٍ شـديدٍ من قِبَلِ الجيشِ، وكان مواليًا للأميرِ مصطفى، لدرجةِ أنه أرسلَ إليه خبرًا بألا يأتيَ إلى حضرةِ السلطان(١٠١).

(١٠١) يروى أن السلطان "القانوني" أراد أن يؤم بنفسه صلاة الجنازة على روح ابنه الأمير مصطفى لكنه اضطر أكثر من مرة إلى الخروج من الصلاة بسبب دخوله في حالة من البكاء الشديد. (أَكْسُونْ، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٣١٦).

وتُظْهِرُ التطوُّراتُ التي وقعتْ بعدَ وفاةِ الأميرِ مصطفى أن السلطانَ قدْ أصدرَ قرارَهُ بإعدامِ ابنِهِ الحبيبِ تحتَ ضغطِ مشاعر يَصْعُبُ التعبيرُ عنها؛ إذ عاشَ أوجاعًا وآلامًا نفسيّةً شديدةً، وتحرّقَ فؤادُهُ مثل أيّ أبٍ، إن هذا القرارَ الصعبَ الذي اتّخذه "القانونيُّ" لم يقفْ ورائَهُ سوى خوفه على سلامةِ الدينِ وبقاءِ الدولة، ونجدُ أن السلطانَ بعدَ ذلكَ قد أخذَ يُكافِئُ أولئكَ الذين كانوا مقرَّبينَ من الأمير مصطفى، كما أثنى كذلكَ على الذين قاموا بخدمَتِهِ منهم.

وبينما كان يتمُّ نقلُ نعشِ الأمير مصطفى إلى مدينةِ "بورصه (*Bursa*)"، كان الجيشُ السلطانيُّ يواصلُ تقدُّمَهُ في حملتِهِ العسكريّةِ حيث وصلَ إلى "حلب" وقضى الشتاءَ هناك.

* * *

وبينما كان القانونيُّ معسكِرًا في "حلب" كانت تنتظرُهُ فاجعةٌ جديدةٌ مؤلِمةٌ، فلقد مرضَ ابنُه الأصغرُ الأمير "جِهَانْجِرْ (*Cihangir*)"، حيثُ سقطَ طريحَ الفراشِ من شدَّةِ تأثُّرِهِ عندما سمِعَ نبأَ اعدامِ أخيه الأكبر مصطفى، وبعد فترةِ مرضٍ قصيرةٍ مرَّ بها "الأميرُ جِهَانْجِرْ" وافَتْهُ المنيّةُ، لقد كان "الأميرُ جِهَانْجِرْ" معروفًا بعلمِهِ وتربيتِهِ العاليةِ وذكائِهِ، إلى جانبِ لُطْفِهِ وموهبَتِهِ الشعريَّةِ، وبعد أن أُقيمت صلاةُ الجنازةِ على "الأميرُ جِهَانْجِرْ" في "حلب" تمَ نقلُ نعشِهِ بعدَ ذلكَ إلى إسطنبول بأمر من والدِهِ، حيثُ تمَّ دفنُهُ في مقبرةِ جامعِ أخيه الأكبر "الأمير محمد" والذي كان قد تُوُفّيَ قبلَ ذلكَ بنحوِ عشرِ سنوات.

وبحلولِ هذهِ الفاجعةِ أيضًا يكونُ "سليمان القانونيُّ" قد عاشَ أَلَمَ موت اثنينِ من أبنائِهِ في فترةٍ زمنيَّةٍ وجيزةٍ تكادُ تُقارِبُ الشهرَ الواحدَ[١٠٢].

(١٠٢) لقد شيد "سليمان القانوني" من أجل هذا الأمير الشاب مجمع رائع خلف (مصنع المدفعية)، وكان هذا المجمع مكونًا من جامع ومدرسة وتكية، هذه المنطقة الرائعة التي تطل من فوق التل على مضيق " البسفور " تحمل اسم " جهانجير " نسبة إلى الأمير " جهانجير ".

obeikandl.com

إتهامات ظالمةٌ في حقِّ "القانونيِّ" وزوجتِهِ

لقد ألقى المُؤرخـون الغربيُون ومعهم المؤرِّخون الأتراك المنحازونَ للغربِ اللّومَ على "السـلطانة خُرَّم" فيما يتعلَّقُ بإعدامِ الأمير مصطفى كما اتَّهموها وحمَّلوها مسؤوليةَ قتل "إبراهيم باشا".

فمثلًا نجدُ "إسـماعيل حقي أُوزُونْ جَارْشِيلِي (*Uzunçarşılı*)" يذكرُ ما حدثَ بخصوصِ هذه المسألةِ على النحوِ التالي قائلًا:

> "...لقد بذلت "السلطانة خُرَّم" جهدَها وصنعت كلَّ ما بوسعِها سـرًّا كـي يتولّى الحكمَ ابنُهـا "بايزيد" الذي تحبُّه كثيـرًا، وقد كان السلطان واقعًا تحت تأثيرِ تلك المرأة الجميلةِ؛ ومن ثَمَّ كان عليها التخلّصُ من الأمير مصطفى كي تُسلَّم السلطةُ للأمير "بيازيد"، وقد نجحت في أوّلِ فرصةٍ سـنحت لها في التخلّصِ من إبراهيم باشـا الـذي كان مؤيدًا لتولّـي الأميرِ مصطفى الحكم؛ حيث اسـتفادت في إنجازِ ذلك من الحوادثِ التي وقعتْ ضِدَّهُ (أي إبراهيم باشـا) آنذاك، ثم بدأت السـلطانة "خَاصَكِي" تعملُ على تجهيزِ الترتيباتِ اللازمـةِ للتَخلُّص من الأمير مصطفى وأخـذت تُنفِّذُ خُطَّتَها رويدًا رويـدًا كي تحقّـقَ مأربَها في ذلك، ولقد لعـب "دامات (*Damat*) رستم باشا" دورًا كبيرًا في هذه المسألة، حيث قام بتزويرِ خطاباتٍ مفبركةٍ وموقَّعةٍ باسم الأمير مصطفى إلى شاه إيران. "[١٠٣]

* * *

وها هو تعليق "إسماعيل حامي دَانِشْمَنْد" بخصوصِ هذهِ الأحداث:

> "...لقد كان "رستم باشا" الذي بقيَ في أواسطِ الأناضول ولم يسـتطعْ أن يواصلَ المسـيرَ إلى الشرقِ بسببِ شِـدَّةِ البردِ مشغولًا بالقيـام بأمـورٍ ملفَّقـةٍ ومدلَّسـة فـي حـقِّ الأمير مصطفـى، وذلك

(١٠٣) أُوزُونْ جَارْشِيلِي، المصدر السابق، ص ٤٠٢.

استجابةً لتعليمات حماته "السلطانة خُرَّم"، وما لبثَ أن أخبرَ حماه "السلطان سليمان" بأنَّ ابنَه الأكبر يستعدُّ للتمرُّدِ عليه."

"...لقد كان الصدر الأعظم يستغل -بكلّ الخبث- الإشاعاتِ المنتشرةَ بين الجيش والشعبِ، وفي الوقت نفسِهِ كان مستمرًّا في تنفيذِ التعليمات التي تأتيه من حماته "السلطانة خُرَّم" حيث كان يعملُ على إذكاءِ هذه الإشاعاتِ ويبالِغُ في تصويرِها وتضخيمِها لآلافِ المرّاتِ محوّلًا إياها إلى تلميحاتٍ في منتهى الخطورة ثم يرسل رجالَه إلى "السلطان سليمان" لكي يقصُّوها عليه. "

"...ومع أن المصادرَ العثمانيّةَ لا تتطرَّقُ إلى هذه المسألةِ إلا أنّنا نُصادِفُها في المصادر الغربية، ولا سيّما تلك الرواية التي نجدها عند "روبرتسون (*Robertson*)"؛ حيث تقول إن الصدر الأعظم "رستم باشا" حرَّرَ مجموعةً من الخطاباتِ المزوَّرةِ التي تُفيدُ أنَّ الأمير مصطفى سيتزوجُ بإحدى بناتِ شاهِ إيران "طهمسب الأول"، وسيتعاونُ معه، ثمَّ أرسَلها إلى "السلطان سليمان" كدليلٍ على الخيانةِ والتآمر.

وكما يذكر "روبرتسون" في كتابه الذي يحمِلُ عنوان "تاريخ الإمبراطور "شارل كانت (*Histoire de L'empereur Charle-Quent*)" فقد كانَ لتلك الخطاباتِ المزوَّرةِ تأثيرٌ كبيرٌ على "السلطان سليمان" عند اتخاذِهِ قرارَه المتعلِّقَ بابنِهِ."

"...لقد عملت "السلطانة خُرَّم" ومعها "السلطانة مِهْرِمَاهْ" منذُ سنواتٍ على المبالغة والإكثار من الحديث أمام السلطان عن الخطرِ القادمِ من وراءِ الأميرِ مصطفى، وهو ما أدّى إلى تهيئةِ الأجواءِ لكي ينقلبَ فكرُ السلطانِ على ابنِهِ معتقدًا أنه تآمرَ عليه بالفعل."

"إن المسؤوليةَ عن هذه الجريمةِ التاريخيَّةِ المَهُولةِ تقعُ على عاتقِ "السلطانة خُرَّم" ذاتِ الأصلِ البولنديّ أو الروسيّ والتي قامت بها بالاشتراكِ مع عريسِ ابنتِها المقرَّبِ منها "رستم باشا"

الكرواتي الذي كان أداتَها لتنفيذِ مآربِها السياسيّةِ، وفي هذه الجريمة كان هناك دورًا أيضًا للسلطان "سليمان" الذي انساقَ مخدوعًا وراءَ هذه الافتراءاتِ، والتي جاءت له موثَّقةً من قِبَلِ هؤلاءِ الناس الذين انعدمَ عندهم الضمير، لقد كان دورُ السلطانِ هنا هوَ دورُ البطلِ المسكينِ الذي انقضَّ على شخصٍ بريء اتُّهِمَ بالخيانةِ وبمحاولةِ تعريضِ الوطنِ للخطرِ من خلالِ التعاونِ مع العدوِّ في سبيلِ الوصولِ إلى السلطةِ، وتمَّ ذلك دونَ حتى أن يلقِ السلطان بالًا إلى أنّ هذا البريء المتّهمَ بالخيانةِ هو ابنُهُ."

"...لقد كانت تلك الحقبةُ الزمنيةُ إحدى الفتراتِ التي استطاعَتْ فيها عناصرُ غيرُ تركيّةٍ -سواءً من الرجالِ أو النساء- الإستيلاءَ على مقاليدِ الحكمِ وعلى القصرِ العثمانيّ..."

"...لقد أصبح ثابتًا من خلال اتّفاقِ المصادرِ الأجنبيّة وكذلك ما ورد في مرثيّة "يحيى بك" أنه قد دُسَّتْ من طرفِ "رستم باشا" وثائقُ تُنْسَبُ للأميرِ مصطفى تُعبّر عن رغبَته في التعاونِ مع إيران..."

"لقد كانت "السلطانة خُرَّم" -التي عاصَرَت أزهى أيامِ الدولةِ العثمانيّة خلالَ عصرِها الذهبيّ- واحدًا من أهمِّ الأسبابِ التي أدَّتْ إلى انهيارِ وتَضَعْضُعِ هذه الدولة !"[١٠٤]

* * *

أما بالنسبة لرأي "يِلْمَازْ أُوزْتُونَا (*Yılmaz Öztuna*)" فنراه يعرِضُهُ علينا من خلال كلامِهِ التالي:

"...إن مشروعَ "السلطانة خُرَّم" ونواياها تجاهَ ولـيّ العهدِ الأمير مصطفى لم تتغيّرْ حتى بعد وفاة الأمير محمد."

"...لقد كان كلٌّ من ابنة "خُرَّم" وزوجِ ابنتِها أدواتٍ في يديها، وأخذَ هذا الثلاثيّ يسيرُ نحوَ هدفِهِ خطوةً خطوةً، حتى وصلَ

(١٠٤) دَانِشْمَنْد، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص ٢٨١.

obeikandl.com

بهـمُ الأمـرُ إلى حدِّ تلفيقِ رسـائلَ مزوَّرةٍ ومُعَـدَّةٍ بدرجةٍ عاليةٍ من الاحترافِ، وبناءً على هذه الخطاباتِ المزوَّرَةِ أصبحَ من الواضحِ وجودُ اتِّفاقٍ بين الأمير مصطفى وشاه إيران "طهمسب الأول".

وبمقتضى هذا الاتفاق فإن الأميرَ مصطفى سيُسـاعِدُ شـاهَ إيران، وفي المقابِلِ فإنَّ شـاهَ إيران سـيدعمُ الأميرَ العثمانيَّ بجيشِهِ من أجلِ أن يجلسَ على العرشِ خلفًا لأبيه [١٠٥].

ونجـد "نِعْمَة طَاشْـكِيرَانْ (*Taşkıran*)" يتحدَّثُ عـن التّخْمينات التاليَةِ المتعلّقةِ بـ"السلطانة خُرَّم" في عملِهِ الذي صدَرَ بعنوان "كتاب خَاصَكِي":

"...يُنسَـبُ لهـا أنـه كان لديها تأثيـرٌ كبير فيمـا يتعلق بخروج حملة إيران."

"...لا شك في أن "السلطانة خُرَّم" كان لها دور في وفاة الأمير مصطفـى، إذ من المحتمل أنها لم تكنْ ترغبُ في وجودِ أيّ عائِقٍ حتى يتمكَّنَ أحدُ أبنائِها من تولّي الحكم عند وفاةِ القانونيّ..."[١٠٦]

السـفير الألمانـي "أوجلر، ج. دي بوسـبيك (*Ogler G. de Busbecq*)" والذي عمل سفيرًا لألمانيا في إسطنبول أثناء فترةِ حكمِ القانونيّ يقول في كتابه "ذكريات" :

"...إن "السـلطانة خُـرَّم" تبـذُلُ كلَّ مـا بوسـعِهَا مـن أجلِ أن تجعلَ أحدَ أبنائِها ورّيثًا للعرش، إنها تريد أن تهُزَّ من مكانةِ الأمير مصطفـى الذي كان أكبَرَ الأمراءِ سـنًا وأعلاهـم مكانةً، ومن أجل الوصولِ إلى هدفها استفادت من مساعدة ومشورة الصدر الأعظم "رستم" بعد أن تزوّجَ من ابنتها السلطانة "مهرماه""[١٠٧].

(١٠٥) يِلْماز أُوزْتُونَا، تاريخ الدولة العثمانية، أنقرة – ١٩٩٨م، المجلد الأول، ص ٢٤٧.

(١٠٦) طَاشْكِيرَانْ، المصدر السابق، ص ٢٦.

(١٠٧) أولجر ج. دي بوسبيك (*Ogler G. de Busbecq*)، " ذكريات سفير في عهد "القانوني" "، أنقرة، ١٩٥٣م، ص ٢٩.

أما "برنارد بروماج (*Bernard Bromage*)" فيقول:

"لقد كانت "السلطانة خُرَّم" مسيطرةً على قلبِ وعقلِ "السلطان سليمان"، لقد كانت تدقّقُ وتلاحظُ كلَّ ما يتعلّقُ بمزاجِهِ ورغباتِهِ وهواجسِهِ، حتى أصبحت على عِلمٍ بكلّ شيءٍ، من أجل ذلك فقد أصبحت الأوامرُ الصادرةُ من "خُرَّم" تكتسِبُ من القوّةِ ما يوازي قوَّةَ الفرمانات، لقد كانت "خُرَّم" تدبّرُ على الدوام خططًا ظالمةً وقمعيةً ثم تُقنعُ بها حبيبهَا "السلطان سليمان".

والآن سنوضِّحُ النقاطَ التاليَةَ لمنَ يتوجَّهونَ بالادِّعاءاتِ الباطلةِ والتي بلغَتْ حدَّ الإهانةِ في حقِّ "السلطانة خُرَّم" :

هل كان القانونيُّ متيّمًا بـ"السلطانة خُرَّم"؟

إن أوَّلَ الاتهاماتِ الموجَّهةِ إلى "السلطانة خُرَّم" تزعُمُ أن السلطانَ القانونيَّ كان خاضعًا لتأثيرِ وأوامرِ هذهِ المرأةِ الحسناءِ الجذَّابةِ، لدرجةِ أنه اندفعَ إلى نوعٍ من الوحشيَّةِ والفظاعةِ بحيث يأمُرُ-أي القانونيُّ- بقتلِ ابنه الأكبرِ ووليِّ عهدِه مصطفى.

يقول "أحمد رفيق ألتيناي (*Altınay*)" :

"أن السلطانة كانت تسعى لأن تَسْلُبَ قلبَ السلطان بجمالِها ولأن تصبحَ هي السلطانةُ الحاكِمَةُ للقصر والدولة، ومن أجلِ تحقيقِ تلك الرغبة فإن "السلطانة خُرَّم" لم تتورَّعْ عن الإتيانِ بأيّ شيءٍ سواءٌ عن طريقِ الحيلةِ أو الخيانةِ أو الجريمةِ."

ولا يكتفى "أحمد رفيق ألتيناي" بهذه الكلمات بل إنه يتحامل على السلطان "القانوني" أيضًا فيقول:

"لقد كان "السلطان سليمان" أداة طيّعةً في يد "خُرَّم" يفعلُ من

أجلِها أيَّ شيءٍ وينفّذُ لها كلَّ ما تريد، وبعد أن كان ينتهي من عِدَّةِ جرائمَ كان يعودُ ليرتَميَ في أحضانها."[١٠٨]

يالَلْعجب!

هـل يـا تُرى وصلـت العلاقة العاطفيّةُ بينَ السـلطان و"خُـرَّم" إلى أن يصبحَ السلطانُ عاشقًا مجنونًا فاقد العقلِ، لدرجةِ أنه يأمرُ بقتل ابنِهِ وولي عهدِهِ من أجلها! أم لدرجةٍ تجعله يهزُّ أركان الدولةِ وأعمدتَها، وأن يعرض بلادَه وشعبَه للخطر!؟

ونجد السيد "نور بيكال (*Nur Baykal*)" يتساءَلُ في مقالةٍ أخرى:

"تلك المرأة -"السـلطانة خُرَّم"- التي تتوقّفُ حياتها ويتوقّفُ مسـتقبلُها ومسـتقبلُ أبنائِها على كلمةٍ تخرجُ من شـفتَي "سـليمان القانونـي" والتـي كانَ من الممكنِ أن تُلْقَى فـي إحدى زوايا قصرٍ قديمٍ عندَ وفاةِ السلطان أو أن تَقِفَ وهي تُشاهِدُ مقتلَ أبنائِها، ماذا كانت سـتصنعُ تلكَ المرأةُ إن لم تقلْ أنها عاشـقةٌ للسـلطان؟ وقد كان السـلطانُ أسـيرَ الوحدةِ، بالنظرِ إلى وضعِهِ آنذاك؛ فهل يُعقل ألا يتجـاوبَ مـع هذهِ المرأةِ التي اهتمّتَ به، وأن يُحرم منها وهي الإنسـانُ الوحيـدُ الـذي يُمْكِـنُ أن يخفّفَ عنـه آلام وحدِتِه؟ تُرى أيمكن أن يُطلَقَ اسم العشق على هذه العلاقةِ القائمةِ بينهما؟"[١٠٩]

لا يمكن أن نصدق أن "القانوني" لم يحب "خُرَّم" على الإطلاق، وأن أشـعاره التي كتبها من أجلِها كانت مجرَّدَ مسـرحيّاتٍ من الشـعرِ الغنائيّ العاطفِيّ، ولا أنه كانَ يراها مجرَّدَ امرأةٍ تُخَفِّفُ عنه وحدَتَهُ.

ولكن عشقه إياها لم يصِلْ إلى حدّ الجنون، ولو أنَّ الأمرَ كان كذلك فهل كان من الممكن أن يصبرَ السـلطانُ مدَّة طويلةً من الزمانِ -هي على

(١٠٨) أ. نور بيقال (*Baykal*)، " السلطانة خُرَم "، مجلة " التاريخ الشعبى "، ٢٠٠١م، الجزء الثاني، العدد ١٦، ص ٢٩.

(١٠٩) أ. نور بيقال (*Baykal*)، " هل جعلت "السلطانة خُرَّم" زوجها القانوني قاتلا؟ "، التاريخ الشعبى، ٢٠٠٤م، الجزء الرابع، العدد ٤٤، ص ٤٥.

الأقلّ سبعة عشر سنةً- على كلام "خُرَّم" من أجلِ القضاءِ على مصطفى وليّ عهدِهِ؟

وهل كان بمقدورِهِ أن يَقِفَ طِوالَ هذه السنواتِ ضِدَّ رغبتِها المتَّقِدَةِ هذه دون أن ينفِّذَها؟

وهل كان "القانونيُّ" سَيَسْمَحُ بأن يُشَكِّلَ الأميرُ مصطفى خطرًا على كرسيّ سلطنتِهِ؟

أَلَمْ يَشُكّ "سليمان القانونيّ" -ذو الدهاءِ العسكريّ والسياسيّ المنقطعِ النظيرِ- أبدًا في الوِشاياتِ التي كانَتْ تقومُ بها "السلطانة خُرَّم" في حقِّ الأمير مصطفى؟ يبقى لنا أن نَذْكُرَ أنَّ هذه الوشاياتِ التي كانتْ تقومُ بها من أجلِ أن تضمنَ وراثةَ العرش لأحدِ أبنائِها كان عليها أن تستمِرَّ مدَّة سبعةَ عشرَ عامًا على الأقل وذلك من تاريخِ مقتلِ الصدرِ الأعظمِ "إبراهيم باشا" عام (١٥٣٦م) وحتى إعدام الأمير مصطفى عام (١٥٥٣م)!

إذًا كيف كان القانوني يحكم بهذا الشكل!؟

قام "بالي (*Bâli*) بك" الذي أظهرَ بطولاتٍ كبيرةً في حربِ "مُوهَاجْ" بكتابة خطابٍ إلى السلطان القانونيّ يطلبُ منه -وهو يذكرُ ويُعَدِّدُ الإنجازاتِ التي قام بها في الحربِ- أن يعيّنَهُ كوزيرٍ عندَهُ، وإذا نظرنا إلى الرَّد الذي أرسلَهُ السلطانُ "القانونيّ" إلى "بالي بك" فإننا نَجِدُهُ لافتًا للانتباه حيث يقول فيه:

> "إن الخدماتِ التي قدّمتها من أجلِ دينِ الإسلامِ ومنِ أجلِ الدولةِ العليّةِ لمْ تذهبْ عندنا سُدًى، أتمنى لك السعادةَ والتوفيقَ، وأن يرضى اللهُ عنكَ، وأن يطَهِّر الله وجهك ويُنوِّره في العالمين، إنك تريدُ أن نُنْعِمَ عليك نظيرَ الخدماتِ التي قدّمْتَها، إننا لن نمنحك درجة قائد لواء فحسبْ، ولكن سنمنَحُكَ -دون تردُّدٍ-

رتبـةَ أميـرِ الأمراءِ، لكن لا تغترَّ بهذا، واعلم أن كلَّ شـيءٍ للهِ ومن عنـدِ اللهِ وحده، ولا تفعَلَنَّ شـيئًا لتنـالَ رضانا نحنُ، بل اصنَـعْ كلَّ شـيءٍ لتفـوزَ برضـا الله، وحذار أن تُخْطِـئَ فتطلبَ شـيئًا منا نحن العباد الفانين، لا تُصَغِّر نفسَكَ عندنا، ولا تتسوَّلْ من أحد ".

* * *

لقد كان "سـليمان القانوني" حاكمًا يراعي الأمورَ الدينيَّةَ بشـكلٍ كاملٍ، لقد كان صاحبَ قلبٍ رحيمٍ لدرجةِ أنه كان حريصًا حتى على ألا يُؤْلِمَ نملةً.

ففي إحدى المرّاتِ وبينما كانَ يتجوَّلُ في حديقةِ القصرِ ذاتَ يومٍ رأى مجموعةً وفيرةً من النملِ وقد أخذَ يغزُو إحدى شجراتِ الكُمّثْرى، وعلى هذا النحو رأى أن الشـجرةَ سـتنهارُ فأرسلَ هذا البيتَ من الشعرِ إلى شيخِ الإسلامِ "أبو السعود أفندي":

إذا ما كان النمل يؤذى الأشجار،

فهل هناك من إثم في قتله؟

وقد ردَّ شـيخُ الإسـلامِ على هذا السؤالِ بهذهِ الفتوى التي جاءَتْ هيَ الأخرى في صورةِ بيتٍ شعريٍّ:

غدًا عندما تقوم الساعة،

ستأخذ النملة حقها منك (١١٠).

إنّ مـن يُنَبِّـهُ كُلَّ مَنْ حولَهُ بضرورةِ القيامِ بكلِّ عملٍ من أجلِ نَيْلِ رضا الله، ويعتني بالدين ويرعاه لدرجةِ أنَّهُ يطلبُ فتوى كي لا يغتصِبَ ولو حتى حقـوقَ نملـةٍ، هل من الممكنِ يا تُرى أن يأمُرَ حاكمٌ يتمتَّـعُ بهذا القدرِ من الرأفةِ والرحمةِ بقتلِ ابنِهِ دونَ أيِّ ذنبٍ؟

(١١٠) إن "أبو السعود أفندى" يشير بطريقة رقيقة في هذا البيت إلى الحكاية التي وقعت بين النملة ونبى الله سليمان والتى ورد ذكرها في سورة النمل.

رجلُ دولةٍ عاشقٌ للعدالة

لقد كان السلطان "سليمانُ القانونيّ" قبلَ أيِّ شيءٍ رجلَ "قانون" ومساواةٍ وعدالةٍ إلى جانبِ كونِهِ رجلَ دولةٍ.

لقد عُرِفَ "السلطان سليمان" كحاكمٍ باسم السلطان "القانونيّ"، وقد أَتَتْ هذه التسميةُ بسببِ لائحةِ قوانينَ كانَ قد أَصدَرَها وتضمّنَتْ الأُسُسَ الإداريّةَ والماليّةَ والقضائيّةَ التي تقومُ عليها الدولة.

لقد جعلَ رجالُ القانونِ العثمانيُّون اللوائحَ القانونيّةَ التي تمّ إعدادُها مستقاةً من الشريعةِ الإسلاميةِ والتي أصبحَ يَتِمُّ تطبيقُها من خلالِ تلك اللوائح، بحيثُ إنّ أيَّ شخصٍ يرتكبُ الجرمَ أيًا ما تكونُ درجتُه فقد كانت تُطَبَّقُ عليه نفسُ الأحكامِ الجزائيّةِ وذلك بشكلٍ متساوٍ سواءٌ أكانَ هذا الشخصُ غنيًّا أو فقيرًا، من عامَّةِ الناس أو من أصحابِ السُّلْطَةِ، من عليَّةِ القومِ أو مِنْ صغارِ الناسِ.[١١١]

لقد كانت القوانينُ مستمَدَّة من الأحكامِ الإسلاميّةِ وكانت تستنِدُ على المبادئ التي تراعِي المساواةَ والعدالةَ بين البشرِ.

* * *

لقد كان السلطانُ يرغبُ في الاجتماعِ برجالِ العلمِ في "دار السعادة" (أي: إسطنبول) وحتى إذا كانَ هؤلاء العلماءُ موجودين ببلدانٍ أجنبيَّةٍ، وفي الواقعةِ التي سنحكِيها الآن يتَّضِحُ بشكلٍ قويٍّ الأهميةَ التي كان السلطانُ يوليها للعلمِ والعلماءِ والقيمةَ التي كان يمنحُهَا للعدالةِ وأهلِ الجدارةِ:

(١١١) إن هذا المنهج من العدل والإنصاف والذى سار عليه "سليمان القانوني" كان السبب في أن يكون هناك تمثال نصفيًا له في متحف الكونجرس بواشنطن.

بعد أن ترقَّى "رمضان زاده محمد جلبي"[١١٢] إلى رتبةِ "نِيشَانْجِي (*Nişancı*)"[١١٣] عُيّن حاكمًا لـ"حلب" أوَّلًا ثمَّ لإحدى مقاطَعاتِ مصرَ وذلك بجهودِ معارضيه، ثم بعد ذلك عُيِّنَ كمسؤولٍ عن مقاطعةٍ من مقاطعاتِ مصرَ، ولكن "القانونيَّ" بعدَ أن وجدَ أنَّ وظيفةَ "نِيشَانْجِي" في الحكومةِ قد أصبَحَتْ خاويةً أصدرَ فرمانًا ذكرَ فيه:

"لقد أوكلت هذا المنصب إلى محمد الذي تولى أمر "المورا (*Mora*)".

لكن الصدر الأعظم "رستم باشا" كان يريد أن ينال هذا المنصبَ شخصٌ آخر؛ لذا فقد ادَّعى أن "رمضان زاده محمد جلبي" متنازلٌ عن هذه الوظيفةِ ويريدُ البقاءَ في مصرَ، لكن السلطانَ بفَراسَتِهِ أدرك الغرضَ الحقيقيَّ في نفسِ الصدرِ الأعظمِ وأصدرَ أمرًا مخالفًا لما كان يسعى إليهِ قائلًا:

> "ليس من المناسب إرسال ذوي الخبرة وأصحابِ الكفاءات العاليةِ إلى خارجِ إسطنبول، بل العكسُ هو الصحيحُ، لأنّ قدومَهم من مصرَ ومن سائرِ البلدان إلى مركزِ الخلافةِ وعاصمةِ السلطنةِ هو الصواب".

وعقبَ ذلك تمَّ تعيينُ "رمضان زاده" في منصِبِ "نِيشَانْجِي" السلطنةِ وظلَّ به حتى وفاتِه.[١١٤]

---

(١١٢) " رمضان زاده " الذي ولد في "مرزيفون" تم تعيينه عام (١٥٥٣م) في منصب "أمين دفتر" وفي العام التالى تم تعيينه في وظيفة "رسول الكتاب"، وقد تم تعيين "رمضان زاده" في منصب "نيشانجي" نظرًا للنجاح والكفاءة التي أظهرها في موقعه كمسؤول عن الضرائب والسجلات العقارية، وبعد أن عمل بكل من "حلب" و"مصر" لفترة فقد تم تعيينه للمرة الثانية في نفس المنصب عام (١٥٦٢م). وقد تم دفن " رمضاتن زاده " الذي توفي عام (١٥٧١م) في فناء "أمير بخارى"، ويعرف " محمد شلبي " بكتابيه اللذين ألفهما وهما كتاب "سير الأنبياء العظام وأحوال الخلفاء الكرام ومناقب آل عثمان" بالإضافة إلى كتابه الصغير "تاريخ نيشانجى".

(١١٣) كانت وظيفة "نِيشَانْجِي" تمثل منصبًا ذى مقام عال حيث كان صاحبها عضوًا بالإدارة المركزية العثمانية في الديوان السلطاني، وكان يعهد إليه بطغراء السلطان العثماني، وبناء على لائحة القوانين التي سنها السلطان "الفاتح" فقد كانت مرتبة "نيشانجى" من الدرجات العالية في إدارة الدولة وكانت تأتى في الأهمية بعد منصب الوزير وقاضي العسكر و"الباش دفتردار".

(١١٤) طَاشْكِيرَانْ، المصدر السابق، ص ٦.

آهٍ يا سليمان، لقد نجوتَ بنفسِكَ وأمّا نحنُ؟!

لقد أوصى "السلطان سليمان" بأن يتِمَّ دفنُ دُرْجِ خزانتِهِ إلى جوارِهِ، ولهذا السبب فقد تمَّ بعدَ وفاتِهِ احضارُ دُرْجِ خزانتِهِ إلى المقبرةِ، لكنّ العلماءَ اعترضُوا على وضعِ دُرْجِ الخزانةِ في القبرِ وعلى دفنِهِ مع جثمانِ السلطانِ وبينما كانَ النقاشُ يدورُ حولَ إذا ما كانَ يجوزُ أو لا يجوزُ أن يُدفَنَ درجُ الخزانةِ في القبرِ إذا بالدرجِ يقعُ على الأرضِ وتتناثرُ الأوراقُ التي كانت موضوعةً فيهِ، وكانتْ هذهِ الأوراقُ عبارةً عن الفتاوى التي تلقَّاها السلطانُ من شيخِ الإسلام "أبي السعود أفندي".

لقد أرادَ السلطانُ سليمانُ بوصيّتِهِ تلك أن يُبَيّنَ أنَّ كلَّ ما قامَ به من أعمالٍ كانَ على أساسٍ من العدالةِ ومراعاةِ الحقوقِ الإسلاميّةِ.

عندما رأى شيخُ الإسلام "أبو السعود أفندي" الذي شاركَ في مراسمِ الجنازةِ هذا المشهدَ قال وقد اختنقتْ كلماتُه وسطَ الدموعِ:

"آه يا سليمان، لقد نجوتَ بنفسِكَ، أما نحن؟!"

* * *

لقد استطاع السلطانُ "سليمان القانونيُّ" أن يُمَثِّلَ الإسلامَ خيرَ تمثيلٍ بعدلِهِ ومراعاتِه للحقوقِ، إلى جانبِ إنسانيّتِهِ وأخلاقِهِ الساميَةِ، وبهذا الشكل استطاعَ أن يتغلّبَ على القُوى التي كانَتْ تواجِهُهُ.

وقد كان دهاؤُهُ السياسيُّ يفوقُ الوصفَ، لقد تمكَّنَ "القانوني" من أن يُؤَسِّسَ دولةً عظيمةً حكمَتِ العالمَ طِوالَ القرونِ ليس فقطْ بالقوّةِ العسكريّةِ، ولكن أيضًا بالمناوراتِ السياسيّة التي كان يجيدُها، كما أثَّرَ

من الناحيةِ السياسيةِ في الأحداث الاجتماعيّةِ الحاصلةِ في أوربّا وتدخَّل فيها بدهاءٍ وحنكةٍ إلى أن نجحَ في الاستفادةِ منها إلى أقصى درجةٍ، أما فيما يخصُّ أوجهَ النقدِ التي وُجّهت إلى "القانوني" فقد كانت هناك مجموعةٌ من الانتقاداتِ المكرَّرَةِ التي تعرضَت لها سيرةُ حياتِهِ، وعلى وجهِ الخصوصِ تلك الادّعاءاتُ التي تناولت موضوعَ (تأثيرِ النساءِ عليه)، ولكن تلك الادعاءاتِ لا تعدو في النهايةِ سوى أن تكونَ مجموعةً من الإشاعاتِ التي تُشْبِهُ البالوناتِ التي نُفِخَتْ أكثرَ من اللازم، فهي في النهاية ادِّعاءاتٌ تفتقر إلى البراهين أو الوقائعيَّةِ والمنطقيَّةِ.[١١٥]

* * *

أليس من الظلم -ولو في نظر الإنسان العادي على الأقل- أن يُحَمِّلَ الكاتبُ "دانِشْمَنْد" مسؤوليةَ بدايةِ سقوطِ الدولةِ العثمانيّةِ في عام (١٩١٨م) للسلطانةِ خرّم زوجةِ القانونيّ مع أنها ماتت عام (١٥٥٨م) أي قبلَ بدايات السقوطِ بأربعةِ قرون تقريبًا!؟

ويرى الكاتب نفسُه في كتابِهِ المسمّى "الأحداث التاريخيّة المسلسلةُ في الدولة العثمانيّةِ" أن "السلطانة خُرَّم" مذنبةٌ بموتِها المفاجِئِ! ياللعجب! وكأنها ماتت برغبتها وطلبها! فيقول:

> "بوفاة "السلطانة خُرَّم" عام (١٥٥٨م) وبعد أن تسبَّبَتْ في إعدامِ الأميرِ المسكينِ مصطفى من أجلِ ضمانِ أن تُصْبِحَ ولايةُ العهدِ في صالحِ ابنها "بيازيد"، نجدُ أنها قد جعلتِ الساحةَ خاليةً أمامَ أنصار "سليم" مما كان له نتائج كارثيّة على الدولة العثمانيّة، وهكذا نجد أن تلكَ المرأةَ قد تسبَّبَتْ في إلحاقِ الأذى بالدولةِ

(١١٥) أَكْسُونْ، المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٣٣٧.

obeikandl.com

العليّةِ العثمانيّةِ سواء أكان ذلك في حياتها أو حتى بعدَ وفاتِها."[١١٦]

فنفهمُ من كاتبِ هذهِ الكلماتِ أنهُ ربَّما يرفعُ تهمةَ انهيارِ وسقوطِ الدولةِ العثمانيّةِ عن السلطانةِ خرَّم لو أنَّها أخَّرَتْ وفاتَها وموتَها بعضَ الوقتِ! وهل هذا كلامُ رجلٍ عاقل؟! وهل هيَ التي اختارَتْ زمانَ وتوقيتَ موتِها!؟

الأبناءُ الذين يتمرّدُونَ على الآباءِ

هل كان التاريخُ العثمانيُّ خاليًا من الأبناءِ الذين أعلنُوا التمرُّدَ على آبائِهم؟ فمثلًا: ألمْ يتحدَّى "السلطان سليم ياووز" والِدَهُ "السلطانَ بيازيد"؟ ألم يُزِحْ السلطان "سليم ياووز" -بمساعدةِ العسكرِ ورغبَتِهم- والدَهُ عن العرشِ ويجلس مكانَهُ؟! وعلى حينِ أنَّ تلك الحادِثَةَ المُهِمَّةَ التي وقعت في حياةِ "القانوني" كانت حاضرةً في الأذهان، فهل من الممكنِ الاعتقادُ بأن السلطانَ لم يُبالِ بحادثةِ الأمير مصطفى ؟! وكما حاولنا عرضَهُ وتقييمَهُ في الأقسامِ السابقةِ فإن السلطانَ كان مشغولًا بـ"بقاءِ الدولةِ والحفاظِ على سلامةِ استمراريَّتِها" أكثر من انشغالِهِ بشكوكِهِ ومخاوفِهِ الشخصيَّةِ

(١١٦) لقد تم تعيين "الأمير سليم" وليًا للعهد نظرًا لأنه كان الأكبر سنًّا، أما "الأمير بيازيد" فقد كان محبوبًا من والدته وتحت حمايتها، وقد كانت هناك قناعة لدى أي شخص بأنه إذا كان اختيار السلطان الجديد بيد "السلطانة خُرّم" فإنها كانت ستولي "بيازيد" على العرش، لكن "السلطان سليمان" كانت لديه رغبة قوية في أن يخلفه "الأمير سليم" من بعده، أما "بيازيد" الذي كان يعلم هذا الأمر فقد كان يسعى بكل الطرق من أجل أن ينقذ نفسه من المصير الذي كان ينتظره ومن أجل الإفلات من الموت المحتوم على يد جلادي أخيه، وقد قرر "بيازيد" أن يجرب حظه ويصارع من أجل العرش بدلًا من أن ينتظر الموت. (بوسبيك، مذكرات سفير في عصر "القانوني"، أنقرة ١٩٥٣، ص ٤٨).

كان "القانوني" في صف ابنه "سليم" عندما اندلع الصراع بين الأخوين وأرسل له العون بقيادة "صوكوللو محمد باشا"، وقد فر "بيازيد" هاربًا بعد أن هزمت قواته في المعركة التي وقعت بين الأخوين عام (١٥٥٩م) عند السهل "قونيه (*Konya*)"، وتلا هذا أن التجأ إلى إيران مع ابنائه الأربعة وحوالي ألف رجل من رجاله، أراد "القانوني" أن يسلم إليه "بيازيد"، وفي النهاية وافق شاه إيران الذي لم يستطع أن يقاوم رغبة السلطان فقام بتسليم الأمير "بيازيد" إلى أخيه "سليم"، وتم إعدام "بيازيد" وباقي الأمراء شنقًا في "قزوين" في يوم السادس من تشرين الأول/أكتوبر من عام (١٥٦١م) حيث تم إحضار جثامينهم إلى الأناضول ودفنوا في مدينة "سيواس". (علي آقتاش، مجلة العالم التركي التاريخية، إسطنبول – ١٩٨٧م، ص ٤٧).

والنفسيَّةِ، وكان هذا الشاغِلُ بالنسبةِ لرجل دولةٍ قويٍّ بحجمِ القانونيّ أمرًا له الأولويّةُ عنده ويفوقُ كلّ اهتمامٍ آخر.

إن سعيَ الأمير مصطفى للتعاونِ مع شاهِ إيران كانَ من الممكنِ أن يُؤَدّي إلى حربٍ أهليّةٍ، وهو ما كان سيُعَرّضُ الدولةَ العليَّة في حالِ حدوثِ ذلك إلى أضرارٍ كبيرةٍ وشُرُورٍ مستطيرةٍ، وبالنسبة لحاكم كان يُطَبّقُ على نفسِهِ أوَّلًا وقبلَ الجميعِ القوانينَ التي تكفلُ الحفاظَ على الدولةِ، أفلا يكونُ قيامُ الأميرِ مصطفى بالتعاونِ مع الأعداءِ واختيارِ طريقِ التمرُّدِ على الدولةِ بمثابَةِ زعزعةٍ لأركانِ الدولةِ السياسيَّةِ والاجتماعيّةِ؟.. وهكذا نرى أن إزاحةَ "السلطان سليمان" للأمير مصطفى وقيامَهُ بالتضحيَةِ بابنِهِ وفَلْذَةِ كَبِدِهِ لا يُفْهَمُ منه سوى أنه قد فعلَ ذلك لضمانِ بقاءِ الدولةِ واستمرارِها، وأيضًا من أجلِ الحيلولةِ دونَ حدوثِ حربٍ أهليَّةٍ.

إن فكرةَ أنَّ إعدامَ الأمير مصطفى كان مرتبطًا بعلاقةِ العِشْقِ التي جمعَت السلطانَ "القانونيَّ" وزوجته "خُرَّم"، وأنَّ إعدامه كان مرتبطًا أيضًا بالدسائسِ والوشاياتِ التي كانت تقومُ بها "السلطانة خُرَّم" لهيَ فكرةٌ ساذَجَةٌ وضحلةٌ إلى أقصى درجة! بلْ هي فكرةٌ نابعةٌ عن عدمِ معرفةٍ بالدولةِ العثمانيَّةِ وحاكِمِها العظيم حقَّ المعرفة! وأيضًا فإن مثل هذا المنهج في التفكير ينم عن عدمِ إدراكِ وجهةِ النظرِ التي كانَتْ لدى السلطان وعن عدمِ فهمِ العواقبِ السيّئةِ التي كان يحرصُ السلطان أن يحميَ الدولة منها في ذلك الوقت.

أينَ هيَ الرسائلُ المُزَوّرَةُ؟

هل حقًّا كان الأميرُ مصطفى يسعى لعقدِ تحالُفٍ مع شاهِ إيران؟! أم أنَّه كما تُشيعُ بعضُ الادّعاءاتِ كانَ ضحيَّةً لمؤامرةٍ ثلاثيّةٍ أركانُها هم "خُرّم

ومِهْرِمَاهْ ورستم"؟! وبعبارةٍ أوضح هل كان السلطان "سليمان القانوني" هو الآخرُ ضحيَّةً للتقاريرِ المُلَفَّقَةِ التي فبركَها هذا الثلاثيُّ المتآمرُ؟!

ألَمْ تكنْ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" -باعتبارِها ابنة السلطان- تُحِبُّ أباها السلطان بنفسِ القدرِ أو أكثر من محبَّةِ أمِّها خرّم لأبيها السلطان؟! أكانَ من الممكنِ أن تكونَ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" مشتركةً في عمليّةٍ موجَّهَةٍ ضِدَّ والدِها السلطان، وأن يكونَ لها دورٌ في مؤامرةٍ تؤدّي إلى موتِ أخيها الأكبرِ مصطفى، أَلَمْ تشعُرُ "السلطانة مِهْرِمَاهْ" بأيِّ قلقٍ من أنْ يعلمَ والدُها "السلطان سليمان" بهذا الأمرِ؟!

إن هناكَ ادّعاءاتٍ بأنَّ الصدرَ الأعظمَ "رستم باشا" قد فبركَ خطاباتٍ مزوَّرَةً منسوبةً إلى الأميرِ مصطفى بعد أن تلقَّى الأمرَ بذلكَ من حماتِهِ "السلطانة خُرَّم"، ألم يكنْ "رستم باشا" صهرًا للسلطان "سليمان" كما كان صِهْرًا للسلطانة "خُرَّم"؟!

أَلَمْ يأمُرِ السلطانُ بقتلِ "إبراهيم باشا" رفيقَ حياتِهِ وأعزَّ أصدقائه قبلَ سبعةَ عَشَرَ عامًا –كما أوضحنا في الأجزاءِ السابقةِ- بسببِ الأخطاءِ العديدةِ التي نُسِبَتْ إليه؟! أكانَ من الممكنِ أن يتجرأَ "رستم باشا" على خيانةِ "سليمان القانونيّ" والتحرُّكِ ضدّه واثقًا في وعودِ حماتِهِ "خُرَّم"؟! ومن يا ترى كانَ يجرُؤُ أو يستطيعُ خداعَ "القانونيّ" ملفِّقًا ومُفبرِكًا خطاباتٍ مزوَّرةٍ؟! أليس من الأقلِّ خطورةً والأكثرِ أمانًا أن يقفَ "رستم باشا" في صفِّ السلطانِ بدلًا من أن يقفَ في صفِّ "خُرَّم" ؟!

إن الفكرةَ القائلةَ بأن "رستم باشا" قد أعدَّ خطاباتٍ مزوَّرةً لتكونَ دليلًا ضدَّ الأمير مصطفى هي فكرةٌ يصعبُ على الإنسان العاقلِ قبولُها بل تكادُ تكونُ مستحيلةً.

يبقى أن نذكرَ ما قاله "دَانِشْمَنْد" عن التأثيرِ الكبيرِ للخطاباتِ المزوَّرةِ التي تحدَّثَ عنها "روبرتسون" في كتابه "**تاريخُ الامبراطورِ شارل كانت**" -والتي لم تأت المصادر العثمانية على ذكر لها- حيث يذكرُ لنا "دَانِشْمَنْد" معتمدًا على الروايةِ المذكورةِ في نفسِ المرجعِ أنّ "رستم باشا" أرسلَ دليلَ الخيانةِ الذي يحوي الخطاباتِ المُزوّرةَ المرسلةَ إلى "السلطان سليمان".

بالإضافة إلى ذلك يذكرُ الكاتبُ أنَّ روايةَ الخطاباتِ المزوّرةِ مثبتةٌ وموجودةٌ في بيتِ الشعرِ الموجودِ بالهامشِ[١١٧] وكذلك أيضًا بالوثائقِ، حيث نجدُ بيتَ الشِّعْرِهذا يُصَدِّقُ هذه الروايةَ في المرثيَّةِ المشهورةِ والمقروءَةِ في كلِّ مكانِ والتي نَظَمَهَا وأعدَّها "يحيى بك". [١١٨]

لكن المثيرَ للعجبِ أنّنا لا نجدُ أثرًا لتلكَ الخطاباتِ المُزَوّرَةِ لا في الأرشيفِ العثمانيّ ولا في أيِّ أرشيفٍ آخرَ بأيِّ مكانٍ في العالم.

* * *

وفاةُ "السلطانة خُرَّم" عن عمرٍ يناهزُ السادسةَ والستينَ

لقد أصبحتِ "السلطانة خُرَّم" -التي تُعتَبَرُ من أكثرِ نساءِ القصرِ العثمانيِّ قوَّةً خلالَ العصرِ الذي عاشَتْهُ- رمزًا لحبِّ الخيرِ والحماسةِ، وتكادُ تكونُ هذه السلطانةُ قد اقتربَتْ أن تكونَ شريكةً لزوجِهَا السلطان في هذا المجالِ.

(١١٧) واحد أو اثنان من أهل الفساد المنحرفين كانا هما حطب الحريق، واحد أو اثنان قاما بتزوير الخطاب فكانا السهم الذي قتله.

(١١٨) أليس من المضحك أن يعتبر الكاتب أن هذا البيت الذي في مرثية الشاعر بمثابة وثيقة تاريخية وأن يجعل إدعائه معتمدًا على هذا البند ؟!

obeikandl.com

و إلـى جانـبِ الأوقافِ التي شـيّدَتْها "السـلطانة خُرَّم" في إسـطنبولَ والقـدسِ فقـد أمرت بتحويلِ إحدى التكايا التي كانت تُعرف باسـم "قَرِيَه (*Kariye*)" إلى مدرسةٍ دينيّةٍ، وقد خَصَّصَتِ الأوقافَ ذاتَ الدخلِ المرتَفِـعِ لجميـعِ المؤسَّساتِ التي أنشأَتْها وعلى رأسِها كلّية "خَاصَكِي".

* * *

وقبيـل عـام (١٥٥٨م) كانـت والـدةُ السـلاطين -حضـرة خَاصَكِي السـلطانة الكبـرى العتيقة[١١٩]- "خُرَّم"[١٢٠] تصـارعُ الأمراضَ، وفي نهاية عام (١٥٥٧م) وأثناءَ تواجُدِها في "أَدرنه" مـع زوجِها "السلطان سليمان" اشـتدَّ عليهـا المـرضُ، ورغـمَ كلِّ الجهودِ التـي بَذَلَهَا أطبـاءُ القصرِ عند عودتِهـا فـي مطلـعِ ربيـعِ عامِ (١٥٥٨م) إلى إسـطنبول إلا أن "السـلطانة خُـرَّم" تُوُفِّيَـتْ عن عمرٍ يناهزُ السادسـةَ والخمسـينَ بحيـثُ يمكنُ القولُ أنهـا قـد ماتت في سـنٍّ مبكّـرةٍ نوعًا مـا، فكانت وفـاة "السـلطانة خُرَّم" في السـادس والعشـرين مـن جمادى الآخر مـن عام (٩٦٥هـ) الموافق للخامـس عشـر مـن نيسـان/إبريل عـام (١٥٥٨م)،[١٢١] وقد قـام الأطباء بتشـخيصِ سـببِ وفاةِ "خُرَّم" بأنه حُمَّى الملاريا! إلا أنَّ الموتَ بسـببِ هـذه الأمراضِ في يومِنا هـذا من الأمورِ القليلةِ والنـادرةِ، والأقربُ إلى المنطـقِ أنّ وفاةَ "السـلطانة خُرَّم" قد جاءت نتيجةَ مـرضٍ مختلفٍ تمامًا عمّا قاله الأطباء[١٢٢].

(١١٩) حضرة خاصكي السلطانة الكبرى العتيقة: لقب أطلق على السلطانة خرم، ويقصد منه التبجيل والتكريم والإحترام.

(١٢٠) حيث كانت تسمى والدة السلاطين، حضرة السلطانة المبجلة الأولى...

(١٢١) بَلْطَجِي، المصدر السابق، ص ٤٩٨.

(١٢٢) طَاشْكِيرَانْ، المصدر السابق، ص ٢٧.

ونجدُ الرحالةَ المشـرِقِيَّ "قطبَ الدين المكّيّ"[(١٢٣)] يذكرُ لنا ما يلي في كتابه "**الفوائدُ السنيَّةُ في رحلة المدينة والروميّة**":

"لقد توفِّيَت والدةُ السـلاطين يوم السـبتِ في السـادسِ والعشرينَ من جمادى الآخر بعد أن تَعَسَّـرَ شـفاؤها من مرضٍ عضالٍ ألَمَّ بها قبلَ فترةٍ، ولقد شُـيِّعَت جنازةُ أمِّ السـلاطين وملجأِ المسـاكين السـلطانة "خَاصَكِي" طيَّبَ اللهُ ثراها ودامَتْ عِصْمَتُهَا حتى جامـعِ "بيازيد" الذي وصلَتْهُ محمولةً علـى أكتافِ الوزراءِ،[(١٢٤)] وبعـد أن قُضِيَتْ صلاةُ الجنازةِ التي أمَّهَا المفتي الأعظـم تمَّ دفنُها على يدِ المفتي الأكبرِ شـيخِ الإسـلام، وقـد عمَّ الحزنُ على أهلِ إسطنبولَ بوفاتِها."[(١٢٥)]

الضريحُ الذي منحَ الحياةَ لحديقةِ الربيعِ

بعدَ أنْ دُفِنَتْ "السـلطانة خُرَّم" في مقبرَةِ جامِـعِ "السـليمانيّة" أُقيمَ لها ضريـحٌ هنـاك حيثُ أمَرَ السـلطانُ "القانونيّ" فيما بعدُ بتشـييدِ مقبرةٍ كبيرةٍ لها، ونجدُ أنه قد كُتِبَتْ آيةٌ قرآنيَّةٌ ذاتُ حَجْمٍ كبيرٍ على الرخامِ المُثَبّتِ في إطارِ القُبَّةِ الخاصَّةِ بضريـحِ "السلطانة خُرَّم" ذي الثمانِ زوايا.

ويتميّـزُ مدخـلُ ذلـك الضريحِ بـأنَّ له رواقًـا وبابًـا وكلا جانبيه مزيَّنٌ بلوحـاتٍ خَزَفِيّـة، وعلى هـذه اللوحات نجدُ آياتٍ من القـرآن الكريم قد

(١٢٣) ولد "قطب الدين مكي نهروالي" في "لاهور" عام (١٥١١م/٩١٧هـ)، درس لفترة في مكة، وفي الأعوام التالية تم تعيينه مفتي وقاضي لمدينة مكة نتيجة لعلو مكانته وتقدير رجال الدولة له. قام "مكي" بزيارتين إلى إسطنبول كانت أولاهما عام (١٥٣٦م) حيث اجتمع في كلا الزيارتين برجال الدولة العثمانية وكذلك دخل في نقاشات علمية مع العلماء، وفي عام (٩٦٥هـ/١٥٥٧م) أرسل إلى مقر الخلافة بصفة مبعوث من شريف مكة السيد "حسن ابن نومي" مع رجاء وطلب منه بإعفاء رئيس الانكشارية "بيري" الذي كان بالمدينة المنورة. وفي عام (١٥٦٧م) تم تعيين "مكي" من قبل السلطان "القانوني" كأول مدرس للمذهب الحنفي في المدرسة (السليمانية)، وفي عام (١٥٨٢م) توفي الشيخ "مكي" في مكة عن عمر يناهز الواحد والسبعين حيث دفن في مكان يسمى "الجنة المعلى".

(١٢٤) لقد حملت "السلطانة خُرَّم" عدة ألقاب سواء في حياتها أو بعد وفاتها، وصار من الثابت أن هذه السيدة قد استحقت الكثير من الألقاب العظيمة وقد تمتعت السلطانة بالاحترام وكانت لها مكانة مميزة بين أفراد الأسرة الحاكمة.

(١٢٥) طَاشْكِيرَانْ، المصدر السابق، ص ٢٠.

obeikandi.com

ضريح "السلطانة خُرّم" في حظيرة جامع السليمانية في إسطنبول

كُتِبَتْ بالخَزَفِ أيضًا بالإضافةِ إلى عباراتِ "لا إله إلا الله" و"سبحان الله" و" الحمد لله"، وعند الدخولِ من بابِ الضريحِ نرى أعمالًا خزفيّةً مزخرفةً صفراءَ تعودُ إلى القرنِ السادسَ عشرَ، وعلى النافذةِ نلاحِظُ آياتٍ قرانيّةً مكتوبةً أيضًا على اللوحاتِ الخزفيَّةِ التي تعلوها، أما حوائطُ الضريحِ فعليها أعمالٌ خزفيَّةٌ تكادُ من روعتِها تَمَسُّ القلبَ وتُشْعِرُ الإنسانَ بأنه في حديقة من حدائقِ الربيعِ، وفي نهايةِ الحائطِ نجدُ إطارًا من النقوشِ الخزفيّةِ البديعة والخلّابةِ، أما زخارفُ قبّةِ الضريحِ التي تحمِلُ سماتِ عصرِها فقد ضاعت نتيجةَ عمليّاتِ الترميمِ(١٢٦).

* * *

ومن أجل خدمةِ ضريحِ "السلطانة خُرَّم" فقد تمَّ تعيينُ عددٍ كبيرٍ من الموظفين، وكان هؤلاءِ الموظفونَ ينقسمون إلى مجموعات متنوعة، أمَّا مجموعةُ القرَّاء فقد كانت تتكوّنُ من واحدٍ وثلاثين قارئًا تقرأُ هذه المجموعةُ جزءًا من القرآن الكريم في أوقاتِ الصبحِ والظهرِ والعصرِ، هذا بالإضافةِ إلى مجموعةِ الحِراسةِ والتي كانت تتكوّن من ستةٍ وثلاثين شخصٍ يقومون بأعمالِ الحراسةِ، أما المجموعةُ الأخيرةُ التي كانت تعملُ في خدمةِ الضريحِ فقد كانت تتكوَّن من تسعةِ أشخاصٍ عُهِدت إليهم أعمالٌ مختلفةٌ، ومن خلال ذلك يُفهَمُ أن عددَ العمال بلَغَ مائةً وثمانيةً وثلاثين شخصًا يعملُ يوميًّا في خدمةِ الضريحِ.

* * *

لقد نجحت "السلطانة خُرَّم" في أن تَلْفِتَ نظرَ "القانونيّ" من بينِ جواري القصر الكثيرات، حتى إنها استطاعَتْ في النهايةِ أن تُصبِحَ

(١٢٦) هَالُوكْ شَاهْسُوفَارْ أُوغْلُو (*Haluk Şehsuvaroğlu*)، " إسطنبول على مر العصور "، الملحق التاريخي لجريدة الجمهورية، ص ١٤٥.

محظيَّتَـه والأقربَ إليه من بينِهِنّ، كما تمكَّنَتْ من أن تفوزَ بحقّ العِتْقِ بعد أن أنجبـت للسـلطانِ أمـراءَ، وكانت تَتَمَنّعُ عن لقائِهِ حتـى نالت في نهايةِ الأمـر مـا كانت تصبو إليه؛ إذ عُقِدَ قرانُها على السـلطانِ بشـكلٍ رسـميّ، لقد أحبَّها "القانونيُّ" كثيرًا لدرجةِ أنه قد شـيَّد الأوقافَ باسـمِها، حيث أمرَ بتشييدِ دارٍ لإطعامِ المحتاجين في كلٍّ من مكةَ المكرمة والمدينة المنورة، كما قام ببناءِ دارٍ أخرى وخانٍ للقوافل وجامعٍ في منطقة "جسـر مصطفى باشـا" بمنطقة "أدرنه" وذلك على شـاطئِ "مَرِيجْ (*Meriç*)"، كما أمر بإقامةِ الكثيرِ من السُّبل المجانيةِ في "أَدرنه" وجلبَ لها الماءَ، وأرسل إلى أهالي الحجازِ -متصدّقًا عن زوجته السلطانة المرحومة- عام (١٥٦١م) صدقاتٍ تُقَدَّرُ بنحوِ ثلاثة آلاف قطعةٍ من الذهب.

حكاياتٌ ملفّقةٌ من نسج الخيال

إنّ بعضًـا من المؤرّخين الأتراك وبعضًا مـن المؤرّخين الغربيّين الذين يُصدرون الأحكام -في حقّ حريم السلطان عمومًا، وفي حقّ السلطانة خرّم خصوصًا- كان هدفُهم ومبتغاهم الإساءةَ إلى كلّ ماقامت به السلطانة خرّم، حتى صاروا يسعَون جاهدين بكلّ وسائلِهم المتاحةِ إلى إظهارِ هذه السيدة المحبة للخير ذاتِ الفِطْنَةِ وصاحبةِ الفَراسة على أنها منبعٌ للشرّ والفساد.

فَمِنْ جُملةِ الأعمالِ التي تُنسَبُ لمؤلّفين اعتُبِرُوا من الكُتّاب العالميين والمشـاهيرِ بسـببِ الروايـاتِ والسِّـيَرِ الذاتيَّـةِ التـي كتبوها عن السـلطان "القانونيّ" كتابُ "فيرفاكس دونى (*Fairfax Downey*)"[١٢٧] و"هارولد لامب

(١٢٧) ولد "فيرفكس دونى" عام (١٨٩٤م) تخرج في جامعة "ياله" وعمل كصحفي، عرف ككاتب في التاريخ العسكري، واشتهر عندنا بكتابه عن التاريخ العثماني الذي صدر تحت عنوان"*The Grande Turke, Suleyman The Magnificent, Sultan of The Ottomans*" أو "التركي المبجّل، السلطان العثماني "سليمان العظيم"، وقد توفي في ولاية "نيو هامشير" في الولايات المتحدة الأمريكية عام (١٩٩٠م).

(*Harold Lamb*)"[١٢٨] فإننا لا نجدُ سوى قصصٍ لا تعتمدُ على أيّ أساسٍ من الصحّةِ وتبدو في صورةِ حكاياتٍ شخصيّةٍ تُصَوِّرُ "خُرَّم" والسلطانَ "القانونيَّ" على أنَهما كانا كيانًا واحدًا لا يفترقانِ عن بعضِهما البعض، وإن العاقلَ والمتدبّرَ ليَعلمُ أنّ تلك الؤلفاتِ ما هي إلا أعمالٌ خياليّةٌ وقصصٌ خرافيّةٌ، وإنه لَمِنْ إضاعةِ الوقتِ كذلكَ أن نجلِسَ لنَنْقُدَ هذه الحكايات والروايات والتي نراها في الغالبِ تأخُذُ شكلَ الأسطورةِ دون أن تستَنِدَ إلى أيّ حقيقةٍ أو معلومةٍ صحيحةٍ أو برهان.

* * *

إننا نَجِدُ في المقابلِ أنّ "قطبَ الدين المكّيّ" -الذي كان من العلماء المشاهيرِ في تلك الفترة- يذكرُ لنا أنَّ "السلطانة خُرَّم" قد انشأتِ الكثيرَ من الأوقافِ والأعمالِ الخيريّة في عدَّةِ مدنٍ عثمانيّة، وعلى رأس هذه الأعمال ما نجده في مكةَ المكرمة والمدينةِ المنوّرة والقدسِ الشريفِ، كما يذكُرُ كذلكَ لنا أنَّ كلَّ أهلِ إسطنبولَ قد تأثَّروا لوفاتِها.

هدفُهم معاداةُ الدولةِ العثمانيّةِ

إن هناكَ فئةً كبيرةً من مؤرّخي الغربِ قد اغتنمَتْ كلّ الفُرَصِ لكي تفصحَ عن عداوتِها للدولة العثمانيّةِ، وقد بذلَ أولئِك المؤرّخون قُصارى جُهدهم لكي يحقّقوا غايتَهم في النيلِ من شموخِ ومكانةِ الدولةِ العثمانيّةِ، مستغلّينَ بذلك كلَّ الأحداث، ومستخدمينَ شتَّى الوسائل.

(١٢٨) ولد "هارولد لامب" في ولاية "نيو جيرسى" بالولايات المتحدة عام (١٨٩٢م). أنهى دراسته في جامعة "كولومبيا"، اهتم أثناء فترة دراسته بتاريخ الشعوب الأسيوية ثم تفرغ بعد الحرب العالمية الأولى لعمل الأبحاث التاريخية. ونظرا لأعماله العلمية فقد نال عام (١٩٣٣م) بمدينة "سان فرانسسكو" جائزة مجموعة "الكومونولث"، وهو معروف لدينا بفضل دراساته التي تناول فيها "جنكيز خان" و"تيمورلنك" والسلطان "القانوني".

وقد كانت الحوادث المتعلقة بمقتل "إبراهيم باشا" والأمير مصطفى إحدى حلقات سلسلة الأحداث التي استغلَّهَا هؤلاءِ الكُتَّاب الغربيون من إجل إثبات ادِّعاءاتِهم والوصولِ إلى غاياتِهم .

لقد كان الهدفُ من هذه المحاولاتِ هو التقليلُ من القامةِ العاليةِ والهامةِ المرفوعةِ التي كان يمثِّلُها السلطان "القانونيّ" الذي رفعَ رايةَ الإسلامِ عاليًا، واستطاعَ أن يصنعَ لنا أزهى عصورِ الدولةِ العثمانيَّةِ وأن يجعلَ كلّ أوروبَّا ترضخُ لقوَّةِ الهلالِ (أي: الإسلام) الذي انطلَقَ من البلقان فاستطاعَ أن يملأَ بأصواتِ نِعالِ خيولِهِ العثمانيّةِ أرجاءَ القارةِ الأوروبيَّةِ.

لقد حاول هؤلاء أن يطبعوا في الأذهانِ صورةً عن "سليمان القانونيّ" توحي بأنه عجوزٌ خائرُ القُوى، أسيرٌ لغرائزِه، ضعيفُ النفسِ بلا إرادةٍ، ظالمٌ، قاسي القلب، قتلَ ابنَهُ بلا شفقةٍ إرضاءً لِعِشْقِهِ، لقد قام هؤلاءِ بمحاولاتِ التشويهِ المتكرّرة لسيرةِ حريمِ السلطانِ العثمانيّ، وكانت وسيلتُهم في ذلك هي "السلطانة خُرَّم" وابنتها "مِهْرِمَاهْ" من خلالِ تصويرِ تلك القاماتِ الشامخةِ على أنها شخصيّاتٌ شيطانيةٌ وفي أسفل السافلين.

ومع الأسفِ فقد انساقَ كُتَّابُنا ذوو الميولِ الغربيّة هم الآخرون وراءَ هذه الادِّعاءات والأكاذيبِ، فسقطوا في حماقةِ ترديدِ الهراءاتِ والمقولات غيرِ المنطقية عن "سليمان القانونيّ" مثلَ مقولةِ "البطلُ المسكينُ الذي انساقَ مخدوعًا بالأباطيلِ".

إن مما يجبُ على المؤرِّخِ أولًا: أن يضعَ يدَه على الوثائقِ السليمةِ قبلَ أن يشرعَ في تقييمِ الأحداثِ، ثم يدقِّقُ النظرَ والفحصَ في المصادرِ والوثائقِ التي بين يديهِ حتى يتأكدَ من صحّتها من خلالِ العقلِ والمنطقِ، كما يجب على المؤرِّخِ أيضًا أن يجتهدَ في تحرّي وفهمِ الأهدافِ التي يحملُها أصحابُ هذه الوثائقِ، إن المؤرِّخَ العادل لا يوجّهُ للشخصيَّاتِ

التاريخيةِ افتراءاتٍ بلا سندٍ أو ادعاءاتٍ بلا دليل، حيث إنه لا يمكنُ تقييمُ الحوادث أو الأشخاصِ بشكلٍ صحيحٍ من خلالِ مثلِ تلكَ الافتراءاتِ والادعاءاتِ، فإنّ المؤرّخ لا يكيلُ الإهاناتِ ويُصدِر الاتهاماتِ إلى أعلامِ التاريخِ بشكلٍ تعسُّفِيٍّ دون دليل .

إن بعضَ مؤرّخينا لم يقوموا بتحليلٍ وافٍ للأحداثِ التاريخيّةِ، ولم يستوعِبُوا بشكلٍ سليم العلاقةَ الحتميّةَ بين السببِ والنتيجةِ، حتى إنهم معَ الأسفِ ضاقت أُفُقُهُمْ وصاروا يتعاملونَ بانحيازٍ تامٍّ مع الأحداثِ التاريخيّةِ.

ونلاحِظُ أن هؤلاءِ المؤرّخين -في أغلب أحوالهم- لم يفعلوا شيئًا سوى إعادةِ وترديدِ أفكارِ وأقوالِ الكُتَّاب الغربيّين.

إن أحدَ مؤرخينا الكبار وهو الأستاذ الدكتور "أ. ذكى وليدى توجان (*Zeki Velidi Togan*)" يقول لنا:

> "إن ممّا يجبُ على المؤرّخِ أن يجتهدَ ليتأكَّدَ من معرفةِ أيِّ عاملٍ من العواملِ المؤثّرةِ في حدوثِ وتطوُّرِ الأحداثِ كانَ الأكثرَ تأثيرًا، كما على المؤرّخِ أن يعلمَ جيّدًا التركيبةَ النفسيَّةَ للبشرِ، وأكثر من ذلك فإنَّ على المؤرّخِ أن يُدْرِكَ الطبيعةَ النفسيَّةَ للشعوبِ والمجموعاتِ وذلك من أجلِ أن يكونَ قادرًا على فهمِ الأحداثِ التي وقعَتْ في الأزمِنَةِ الماضية وكذلك على فهمِ الأشخاصِ والجماعاتِ التي لعبت دورًا في تلك الأحداث فهمًا صحيحًا). "(١٢٩)

ومن الباحثين المهمّين في التاريخ نجدُ "محمد نيازي (*Mehmed Niyazi*)" الذي يقول لنا معلّقًا على هذا الموضوع:

(١٢٩) أ.د أحمد ذكي وليدي تُوجَانْ (*Togan*)، " الأساس في التاريخ "، إسطنبول – ١٩٨٥م، ص ١٠٧.

"على المؤرخ عندما يدرُس كلَّ الأبعادِ المحيطةِ بالواقعةِ التاريخيّةِ التي بين يديه أن يتحلَّى بدقَّةِ وحرصِ العالِمِ الخبيرِ الذي يقفُ في المختبرِ العمليّ، وعليه أيضًا أن يكونَ محايدًا إلى أقصى درجةٍ في مواجهةِ ما يسجّلُه من وقائِع."(١٣٠)

* * *

إن المؤرّخَ المحايدَ لا ينبغي لهُ أن يُصْدِرَ حكمًا على البشرِ استنادًا إلى الجنسيّةِ التي ينتمي إليها هؤلاءِ البشر كأنْ يقولَ:

"إن المسؤوليةَ عن هذه الجريمةِ التاريخيّةِ المهولةِ تقعُ على عاتقِ "السلطانة خُرَّم" ذاتِ الأصلِ البولنديّ أو الروسيّ والتي قامت بها بالاشتراكِ مع عريسِ ابنتِها المقرّبِ منها "رستم باشا" الكرواتي الذي كان أداتَها لتنفيذِ مآربِها السياسيّةِ ".

وذلك لأنّ البشرَ لا يختارون بإرادتهم الأعراقَ أو الشعوبَ التي ينتمونَ إليها.

إن المؤرّخ المحايدَ والناجحَ لا يسوقُ تخمياتِهِ الشخصيّة الخاصّةِ بهِ فيما يتعلَّقُ بالأحداثِ التاريخيّة، فلا يأتي بمثلِ هذهِ العباراتِ الرديئَةِ:

"لا شكّ في أنَّ "السلطانة خُرَّم" كان لها دورٌ في وفاةِ الأميرِ مصطفى، إذ من المحتملِ أنها لم تكنْ ترغبُ في وجودِ أيّ عائِقٍ أمام أحدِ أبنائِها في طريقِ تولّي الحكمِ عند وفاةِ القانونيّ ".

إن المؤرّخَ المحايدَ لا يسمحُ لنفسِهِ أن يُصدِرَ أحكامًا عامَّةً فيما يتعلَّقُ بمُجملِ أحداثِ التاريخ، فلا يستخدِمُ تعبيراتٍ مثلَ؛

"...هؤلاء الناس الذين انعدمَ عندهم الضمير"

أو:

(١٣٠) محمد نِيازِي أُوزْدَمِيْر (*Özdemir*)، فلسفة التاريخ التركي، إسطنبول – ٢٠٠٨م، ص ٩٤.

obeikandl.com

"...لقد كانت تلك إحدى الفترات التي استطاعت فيها عناصرُ غيرُ تركيّةٍ سواء من الرجال أو النساء الاستيلاءَ على مقاليدِ الحكم وعلى القصر العثماني..."

لقد كان في تاريخِ العثمانيين الكثيرُ من العناصِرِ غيرِ التركيّة التي لا تُعَدُّ ولا تُحصى والتي خدمت الدولةَ العليّةَ والعالم الإسلاميَّ الحنيفَ، فنجدُ العشراتِ من رجالِ الدولةِ ابتداءً من "صوكوللو (*Sokullu*)" إلى "كوبورلو (*Köprülü*)" والذين لا ينتمون إلى أصول تركيّة ولكنّنا نَجدُ أنهم قد قاموا بخدَمَاتٍ جليلةٍ للدولةِ، وجعلوا حياتَهم وقفًا على الدولة العثمانية من أجلِ إعلاءِ شأنِها.

إنّ تاريخ العثمانيين يحوي الآلافَ من الجواري اللاتي كُنَّ ضمنَ الحريم واللاتي كُنَّ من جميع الجنسيَّات، فكانت منهنّ ذاتُ الأصلِ الإيطاليّ أو الروسيّ أو البولنديّ أو الأوكرانيّ أو الجورجيّ أو الشركسيّ أو غيرِها من الأصولِ، وقد تمكَّنَ قسمٌ من هؤلاءِ الجواري أن يكونَ جزءًا من حريم السلطانِ لتصبحَ الواحدةُ منهنَّ مُسْتَفْرَشَةً (*ikbal*) أو زوجةً (*kadınefendi*) أو محظيّةً (*haseki*)، بل إنَّ بعضَهُنَّ قد علا شأنُها أحيانًا فوصلت إلى درجة أن تحملَ لقبَ "السلطانة الوالدة".

فمن السلطانة "نوربانو (*Nurbânu*)" إلى "برتفنيال (*Pertevniyal*)" ومن "خديجة طرخان (*Tarhan*)" إلى "بزمي عالم (*Bezmiâlem*)"، نجدُ الكثيرَ من نماذجِ السلطانةِ الوالدةِ واللاتي ضربْنَ المثلَ في الشفقةِ والرحمةِ، وكانت غايةُ حياةِ هؤلاءِ السيداتِ هي تقديمُ الخِدمةِ للناسِ، حيث تعلَّقَتْ قلوبُهُنَّ باللهِ وبحبيبِهِ الرسول ﷺ، كذلك نجدُ أنَّهُنَّ قد سعيْنَ من خلالِ الأوقافِ الخيريَّةِ الكثيرةِ اللاتي أقمْنَها إلى ضمانِ تحقيقِ التكافلِ الاجتماعيّ داخلَ المجتمع.